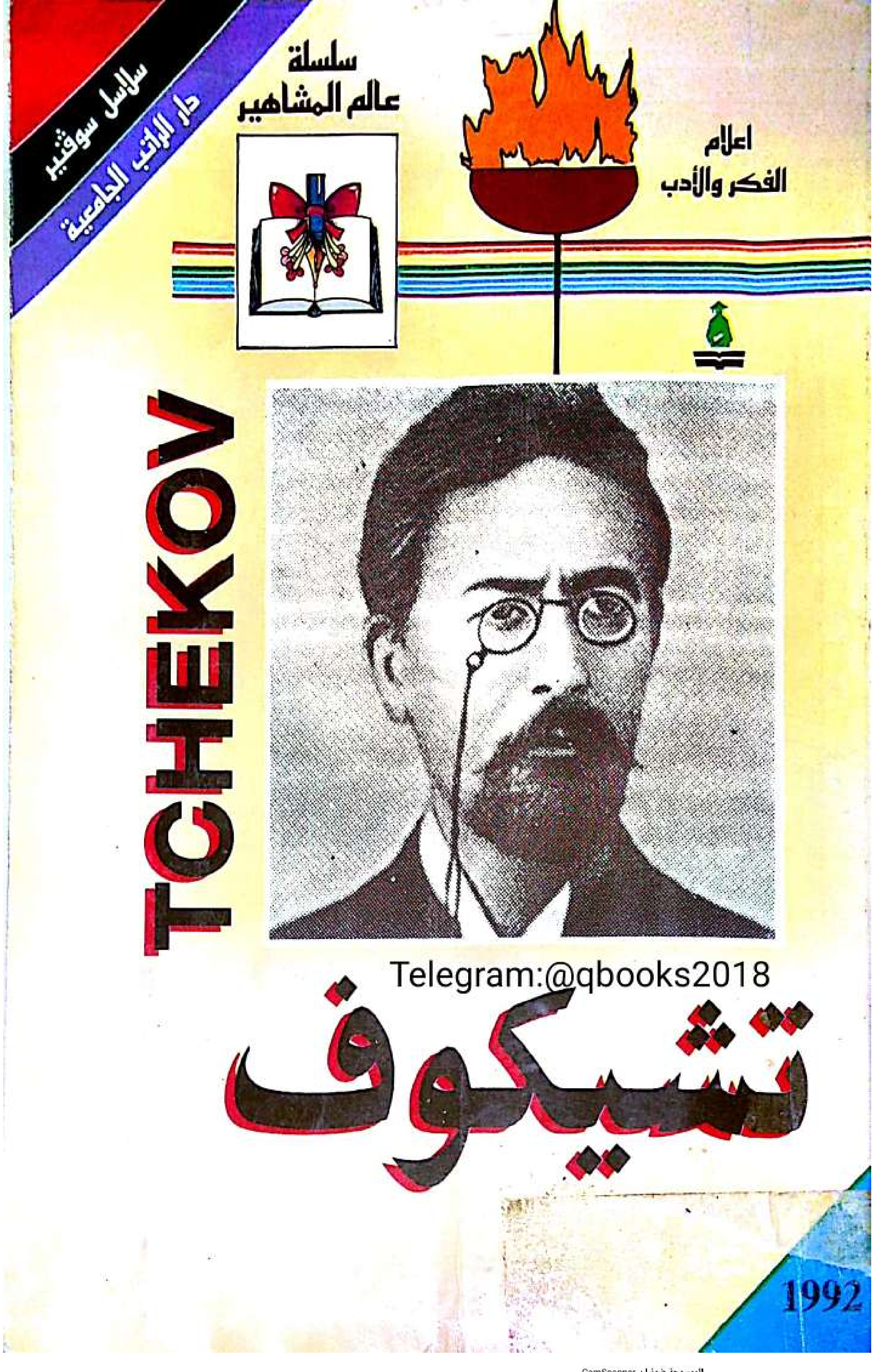
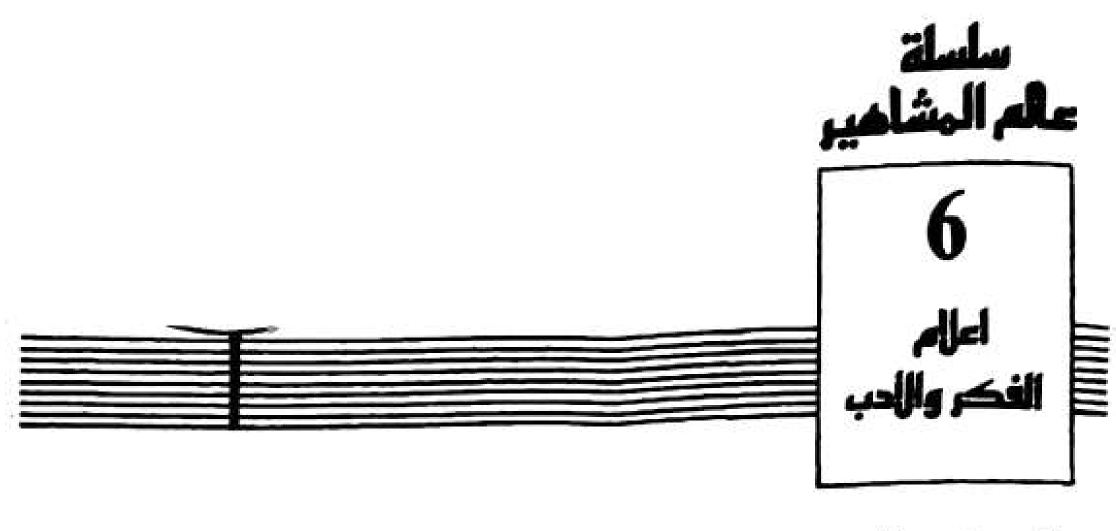

سلاسل سوفنير
دار الراتب الجامعية
سلسلة
عالم المشاهير
اعلام
الفكر والأدب
TCHEKOV
Telegram:@qbooks2018
تشيكوف
1992



الروائي الروسي

انطون تشيكوف

ANTONE TSHEKOV

جورج مدبك

1992

دار الراتب الجامعية - سوفنير

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

يعتبر تشيكوف سيد القصة القصيرة. من الصعب تحليل اللغز الفني لقصصه القصيرة التي لا تحتوي لا على بداية ولا على نهاية وليس يوجد فيها حبكة مثيرة تشد القارىء إلى متابعة أحداث القصة. ينتقل تشيكوف في قصصه من واقعية الطبائع إلى واقعية الرمزية. كل اتصال إنساني يفرز معنى يوصي به في قصصه. لا يمر شيء دون أن يترك أثراً خلفه ولذلك يعتبر تشيكوف أن كل عمل يؤثر على الحياة الحاضرة والمستقبلية. أما الحياة السطحية فهي تخفي حياة عميقة يتوه في لججها غالباً الرجال.

عرّف الشاعر الالماني غوتيه القصة القصيرة بأنها علاقة حدث جديد لم يسمع به وهي تتعلق بشخصيات مكوّنة في السابق. إذاً وحسب غوتيه فالقصة القصيرة ترسم حدثاً وحيداً غريباً دون أي تطور نفسي لشخصيات القصة. إنها حدث عام تسرد وقائعه بطريقة فنية. ينطبق هذا المفهوم على أعمال بوكاشيو وسرفانتس وميريميه وبوشكين وكافكا.

لكن انطون تشيكوف تغلغل إلى أعماق أشخاص القصة ليصل إلى المصدر الخفي للأشياء. أعلن تشيكوف «إن فن الكتابة يتكوّن بالإضافة إلى الكتابة الجيدة حذف كل ما هو غير جيد من النص. يجب بمعنى آخر التطريز على الورق».

تركيز أقصى وغياب الإستنتاجات الوسطية والتوقفات الفجائية في منتصف الحوار أو الوصف كل ذلك شكل مكونات فن تشيكوف في الكتابة. «الإيجاز والبساطة وكلما كانت القصة أقصر كلما زادت قيمتها، ولأن الشكل يُقيّد تنبع الفكرة بحدة أعظم. هل لاحظتم أن قطعة من السماء تشاهد من خلال نافذة أو كوة أو بين صخرتين أو فتحة باب تعطي فكرة أعمق عن اللانهائي أكثر مما تعطيه مشاهدة السماء من قمة عالية. أما بالنسبة للقصائد الطويلة فنعرف أنها وسيلة أولئك الذين لا يستطيعون نظم قصائد قصيرة». إن القصص القصيرة التي كتبها موباسان جافة ومكتنزة كما هي قصص ميريميه أما قصص تشيكوف فهي أشد تعقيداً وشاعرية وأكبر عمقاً من قصص الكاتبين الفرنسيين.

إذا كانت القصة القصيرة التي خلقها تشيكوف عملاً أصيلاً وإذا كان هذا النمط من الكتابة النمط الذي تميز به تشيكوف فلن ينسينا ذلك أنه كان كاتباً فذاً للمسرح.. اعتمد تشيكوف في كتابته للمسرح نفس القواعد الداخلية التي اتبعها في كتابة قصصه القصيرة وبذلك أعطى لمسرحياته أصالة قوية وصوّر فيها الطبقات الدفينة للنفس البشرية.



انطون تشيكوف

موجز سيرة انطون تشيكوف (١٨٦٠ - ١٩٠٤)

٧ ينـاير (كـانـون الثـاني) ١٨٦٠ : ولادة انـطون بـافلوفيتش تشيكوف في مدينـة تاجـانروغ وكـان ثالث ابن ذكـر لبافل تشيكوف البقال والتاجر الصغير.

١٨٧٦ : إفلاس والد تشيكوف ومغادرة العائلة مدينة تاجانروغ إلى مـوسكو ولكن تشيكـوف ظل في هـذه المدينـة لإكمال تحصيله العلمي في جامعتها.

١٨٧٩ : بعد حصوله على البكالوريوس انتقـل تشيكوف إلى موسكو للعيش مـع أفراد عـائلته. سجـل اسمه في كلية الطب في موسكو.

١٨٨٠ : ظهـور أول قصة قصيـرة لأنطون تشيكـوف «رسالـة صـاحب أرض في حـوض نهـر الـدون إلى جـاره العـالم». نشرت هـذه القصة في المجلة السـاخرة «LA CIGALE».

١٨٨١ : ساهم تشيكوف في تحرير مجلات ساخرة عديدة مع الإستمرار في دراسة الطب وظهرت فيها عدة قصص قصيرة له تحت أسماء مستعارة.

١٨٨٤ : أنهى تشيكوف دراسة الطب وبدأ يمارسه في موسكو وضواحيها. نشر أول مجموعة من قصصه القصيرة «قصص ملپومين».

١٨٨٦ : بداية اشتراكه في تحرير الصحيفة اليومية «NOVOIE VREMIA» وهي صحيفة حكومية رجعية. نشر المجموعة الثانية من قصصه القصيرة.

١٨٨٧ : نشر المجموعة الثالثة والرابعة من قصصه القصيرة وفي ١٩ نوفمبر (تشرين الثاني) جرى أول عرض لمسرحيته «إيڤانوف» على مسرح كورش في موسكو.

١٨٨٨ : نشر تشيكوف أربع قصص قصيرة هي «السهب» و«النيران» و«ذكرى المولد» و«الأزمة». منحته أكاديمية العلوم «جائزة بوشكين». ظهور مجموعته الخامسة من القصص القصيرة.

١٨٩٠ : نشر ثلاث قصص قصيرة هي «اللصوص» و«غوزيف» و«في المنفى».

١٨٩١ : رحلة إلى خارج روسيا وعند عودته نشر القصتين «المبارزة» و«بابا».

١٨٩٣ : نشر قصتين هما «حكاية مجهول» و«جزيرة سخالين».

١٨٩٤ : سوء حالته الصحية وذهابه إلى الخارج وعند عودته نشر قصته «ممالحة النساء».

١٨٩٥ : إنشاء المذهب الرمزي ولكن تشيكوف لم يحب المنحطين فنشر قصته «النورس» هاجم فيها أتباع هذا المذهب الجديد. نشر في أواخر العام قصته «ثلاث سنوات».

١٨٩٦ : أول عرض مسرحي لقصته «النورس» في سان بطرسبورغ ولكنها فشلت فشلاً ذريعاً. نشر قصته «المنزل في العلية» و«حياتي».

١٨٩٧ : ظهور مجموعة قصصية جديدة حوت لأول مرة قصته القصيرة «العم فانيا».

١٨٩٨ : في ١٢ أكتوبر (تشرين الأول) توفي والد تشيكوف. نجح عرض مسرحيته «النورس» في موسكو نجاحاً هائلاً. نشر مجموعة من القصص القصيرة حوت «كشمش للأسقمري» و«الحب» و«الرجل ذو الجعبة».

١٨٩٩ : أول عرض لقصته «العم فانيا» على المسرح الفني في موسكو. نشر قصة «السيدة والكلب الصغير».

١٩٠٠ : انتخابه عضواً في أكاديمية الأدب. قام برحلة إلى الخارج وعند عودته نشر قصته «في الوادي».

١٩٠١ : عرض قصته «الشقيقات الثلاث» على المسرح الفني في موسكو. تزوج في ٢٥ مايو (أيار) بالممثلة المسرحية أولغا كنيبر.

١٩٠٢ : إنسحابه من عضوية أكاديمية الآداب لأن لجنتها رفضت قبول ماكسيم غوركي في عضويتها. نشر قصته «المطران». ازدياد سوء حالته الصحية.

١٩٠٣ : نشر قصتين قصيرتين «الخطيبة» و«بستان الكرز».

١٩٠٤ : أول عرض مسرحي لقصته «بستان الكرز» في موسكو. عرف الشهرة والنجاح ولكن صحته تدهورت. سافر إلى برلين للعلاج.

٢ يوليو (تموز) ١٩٠٤ : وفاة انطون تشيكوف في المانيا. نقل جثمانه إلى موسكو حيث دفن في ٩ يوليو وحول منزله في يالتا بعد وفاته إلى «متحف تشيكوف».

طفولته وحداثته

«أحب الحياة بوجه عام ولكن الحياة في الريف الروسي أكـرهها وأحتقـرها بكـل قـواي» (من كتـاب تشيكـوف «العم فانيا»).

إحتفظ انطون تشيكوف من طفـولته وحـداثته في المدينة الصغيرة تاجانروغ بـذكريـات مرة لأنـه إضطر أن يعيش مع رجال ذوي أخلاق شرسة وجاهلين ومتعلقين بالخرافات وغير مهتمين لأي جمال أو عدالة أو طهارة.

«أحببت المدينة التي ولدت فيها وبـدت في عيني جميلة وحميمة. أحببت خضرة بساتينها وهدوءها الصباحي وأصوات أجـراسها. كنت أسيـر في شارعهـا الرئيسي الجميـل وأشعر وكأنه حديقة غناء تحيط بمنزلي. أحببت الغسق في شهر مايو ورائحة الزنبق والسكون ودفء الهواء. لكن الـرجال سكـان هذه المدينة كانـوا يثيرون الملل ويبـدون لي غربـاء وأحيانـاً منفريـن. لم أعـرف ولم أفهم كيف ولمــاذا يعيش السكـان الخمسة وستين ألفاً في هذه المدينة. أشعر بـالخجل عنـدما

أريد التحدث عن الحياة التي كان يعيشها هؤلاء السكان في هذه المدينة التي لا يوجد فيها لا حديقة عامة ولا مسرح ولا فرقة موسيقية جيدة. لا يزور المكتبات العامة والخاصة في المدينة إلا الشبان اليهود ولذلك كانت تبقى المجلات والصحف على حالها لأشهر طويلة دون أن يقلب صفحاتها أي شخص. كان الأثرياء والمثقفون يعيشون في غرف ضيقة وخانقة فوق أسرة من الخشب تعج بالبق. كان الناس يأكلون أطعمة سيئة ويشربون المياه الملوثة. لم أعرف في كل المدينة رجلاً واحداً شريفاً». (من كتاب «حياتي» - ١٨٩٦). ولد وعاش تشيكوف في أحد أفقر حارات هذه المدينة وفي عام ١٨٨٧ عندما زار مجدداً منزله القديم كتب باشمئزاز في رسالة إلى شقيقته «كم هي خاوية مدينة تاجانروغ وكم هم سكانها كسالى وجهلة ومضجرون. الشوارع مقفرة والكسل شامل. يكتفي الناس هنا بالحصول على ما يكفي لإسكات جوعهم دون الإهتمام بمستقبلهم».

كان والد انطون، باڤل، بقالاً ولكنه أيضاً كان يكتفي بما يكسب من هذه التجارة الحقيرة ولم يكن له أي طموح في أن يحسن وضعه التجاري وكان يهتم بالفن ومتعصباً للدين. تعلّم والد انطون، الأمي تقريباً، كيف يعزف على الكمان وكيف يرسم بالزيت وكان يعرف كيف ينشد التراتيل الدينية وكانت هذه الاهتمامات تستهلك قسماً كبيراً من وقته بدلاً من

أن يهتم بأمور تجارته. كان يعامل أولاده بقسوة ورثها عن والده ولذلك عاش انطون منذ طفولته في رعب دائم من والده. ذكر انطون في رسالة إلى الكاتب شتيغلوف مؤرخة في ٩ مارس (آذار) ١٨٩٢ «أذكر بأنه بدأ يعلمني أو بالأحرى بدأ يضربني وكنت لم أتجاوز بعد سن الخامسة. كنت عند نهوضي من النوم أسأل نفسي قبل أن أفعل أي شيء «هل سيضربني اليوم أم لا؟».

كانت والدة انطون يوجيني امرأة طيبة تخضع دائماً لاستبداد زوجها وتحاول دون نجاح حماية أولادها من ضربات والدهم. أحب انطون هذه الوالدة الطاهرة والطيبة القلب التي تضحي بسكون من أجل راحة أولادها دون أن تعرف كيف تساعدهم ولا كيف تربيهم.

كان على انطون وشقيقيه النهوض في الفجر حتى في أيام الشتاء القاسي لفتح دكان البقالة ولا يغلقون بابها إلا بعد الساعة الحادية عشرة ليلاً. كانت دكان بأقل محل بقالة وصيدلية سرية ومخزناً لبيع سلع مختلفة من بينها الأيقونات المقدسة المستوردة من القدس كما كانت مستودعاً للخمور يتحول في المساء إلى شبه حانة يجتمع فيها بعض زبائن الدكان لشرب الخمور. تحت تأثير والدته أحب انطون الحيوانات وكان يشعر بألم نفسي عظيم عند رؤية سوء معاملة حيوانات الجر. قال تشيكوف في مذكراته «خلال طفولتي لم

أعرف طعم الطفولة. كنت عاملاً منذ صغري. أعمل مع شقيقي في محل البقالة وكانت المراحيض موجودة في فسحة من الأرض تبعد كثيراً عن الدكان فكان ينتابنا الخوف عندما نذهب في الليل إلى المراحيض ونصطدم ونحن سائران بأحد السكارى أو المشردين. فنأخذ بالركض عائدين إلى الدكان دون أن نقضي حاجتنا». لكن انطون استفاد من تعامله مع زبائن البقالة من عمال وحمالين وبحارة ويونانيين ويهود وأرمن ورهبان وسياح في إغناء ذاكرته وروح المراقبة لديه.

بالإضافة إلى هذه الساعات الطويلة في المتجر كان على أولاد باقل أن يتحملوا التعصب الديني لوالدهم. كانت التراتيل الدينية وأداءها أهم ما يشغل باب الوالد «كان اهتمامه بالفن وولعه بالغناء لا يتركان له وقتاً للراحة. جمع الوالد من حوله جوقة لأداء التراتيل الدينية مكونة من احداث ذوي حناجر قوية وقرر أن يضم إلى جوقته أولاده الثلاثة لتدريبهم ولكن كان صوت انطون ضعيفاً لا يصلح للترتيل فأثار ذلك والده واتهمه بأنه يحاول التملص من الترتيل في الكنيسة ـ «إني أخاف من الدين. عندما أمر أمام كنيسة، أتذكر طفولتي فيتملكني الرعب» ـ أضيف إلى مرحلة طفولته وضع ثالث هو الجامعة. رافق خلال دراسته الجامعية المثقفين ولكن الجامعة لم تترك سوى أثر بسيط في حياته. كان أثناء العطل المدرسية يذهب إلى قرية كيناجيا عند جده فانطبعت في

ذاكرته المناظر الريفية الجميلة التي ذكرها وامتدحها في قصصه وبالأخص قصة «السهب». ساعدته ذاكرته العجيبة في تذكر كل أحداث طفولته وحداثته وانفجرت المرارة التي ذاقها خلال مرحلة طفولته في القصص التي كتبها ولكن من جهة أخرى احتفظ في داخله بالسخرية والهجاء والمرح مما ساعده في ابتكار المواقف المضحكة والقصص الغريبة المليئة بالإنتقادات للأوضاع السائدة.

برز نبوغه الهزلي أول ما برز في أولى رسائله إلى أصدقاءه وأقاربه. كتب مرة إلى ابن عمه عام ١٨٧٧ رسالة قال فيها «اقبل تحيات أخيك الذي لا يملك سوى شقيقة واحدة وأربعة أشقاء حقيقيين وشقيقين من الدرجة الثانية وشقيقة من الدرجة الثانية أيضاً أي أني أملك كل شيء ما عدا المال والإدراك الجيد». وجد النقاد صعوبة كبيرة في ترجمة أعمال تشيكوف وبالأخص رسائلة إلى أشقاءه وأصدقاءه وإلى زوجته فيما بعد. لقد ابتكر كلمات باللغة الروسية كانت في بدء حياته الأدبية العناصر الرئيسية لنجاحه.. وبالإضافة إلى السخرية والمزاح الذين كان يلجأ إليهما تشيكوف في رسائله فقد كشفت هذه الرسائل قبل أي شيء آخر عن حساسيته الشديدة منذ صغر سنه. كتب رسالة إلى ابن عمه مؤرخة في ٢٩ يوليو (تموز ١٨٧٧) قال فيها: «إن والدي ووالدتي شخصان فريدان بالنسبة لي في هذا العالم ولا أوفر شيئاً لإسعادهما. إن حبهما غير المحدود لأولادهما يجعلهما فوق

كل مديح ويغطي كافة عيوبهما». عاتب شقيقه في إحدى رسائله لأنه وصف نفسه بلا شيء وبشخص لا أهمية له. قال له: «يمكنك قول ذلك أمام الله وأمام الجمال والطبيعة ولكن لا أريد منك أن تقوله أمام الرجال. يجب عليك أمام الرجال أن تحافظ على كرامتك الشخصية ولا تبخس قدر نفسك».

بعد أن أفلس والده وهربه مع العائلة إلى موسكو خوفاً من الحكم عليه بالسجن ظلت العائلة تنتقل في موسكو من منزل حقير إلى منزل أحقر، بدون مال وبدون هدف وبدون أمل في الحصول على مساعدة من الآخرين. هرب شقيقه الأكبر ألكسندر من هذا الجو العائلي الخانق وعاش مع إحدى المومسات في منزلها. أما شقيقه الثاني نيقولا فكان يملك موهبة الرسم. كان يمضي معظم أوقاته في حانات موسكو وفي أزقتها السيئة الصيت ليبيع رسومه إلى السكارى والمومسات. كان شقيقه الثالث إيڤان لا يملك ذرة من النبوغ فكان يكسب بعض النقود من خلال عمله من التدريس في المنازل. كانت شقيقته الوحيدة ماشا تذهب إلى المدرسة مع الشقيق الأصغر ميشال. عندما أصبح في سن التاسعة عشر حصل انطون على البكالوريوس في الآداب ولحق بأفراد عائلته في موسكو.

كان المنزل الذي تعيش فيه عائلته حقيراً ومع ذلك فقد وجد انطون فيه سعادة لأنه تمكن في موسكو من تسجيل

اسمه في كلية الطب. اصطحب انـطون معه من تـاجانـروغ صديقين يريدان الدراسـة في موسكـو فأسكنهمـا في المنزل العائلي رغم ضيق المكان مقـابل دفـع بعض المال كـإيجار الأمر الذي ساعد قليلاً في توفير الأكل لأفراد العائلة. سيطر انطون شيئاً فشيئاً على شؤون العائلة وقال شقيقه ميشـال في مذكراته «كانت آراء انطون إلزامية بالنسبة لأفراد العائلة. ماذا كان سيحدث لعائلتنا لو أن انطون لم يلحق بها؟ بدأ انطون يكتب القصص لكسب بعض النقـود للإنفـاق علينا. فـرض على نيقولا أن يرسم صوراً كاريكاتورية لبيعها إلى المجلات الساخـرة وأجبـر إيفـان على العمـــل كمـدرس في إحـدى المــدارس الحكـوميـة في حين أجبــرني على استنسـاخ المحاضرات الجامعية لبيعها إلى التلاميذ. كان يجمـع أفراد عـائلتنا محبـة خالصـة ودقيقة حبـك شبكتها انـطون ووضـع قوانينها». عمل انطون دون راحـة: يدرس في الجـامعة في النهار ويكتب المقالات للصحف. إبتعد عن أصدقاءه وأقرانه في كليـة الطب ولم يشـارك في الإجتماعـات الطالبيـة التي كـانت تبحث خلالهـا شؤون البلاد المتـدهـورة. إنتشـر في مـوسكو الإرهـاب الثوري وتكـررت المحاولات لقلب نـظام الحكم وبلغت ذروتها باغتيال القيصر الكسنـدر الثاني. رغم كل هذه الأحداث المصيرية ظل انطون منطوياً على نفسه لا يهتم إلا بدروسه وتوفير المال اللازم لإعالة أفراد عائلته.

راقب عن كثب من خـلال عمله الصحفي كـل مـا يـدور

حـوله من الأحـداث السيـاسيـة ولكنـه ظـل محتفـظاً بـآراءه الشخصيـة. ومنعت نفسه الإيجـابيـة وحـذره المـوروث عن أجداده الفلاحين من تصـديق ما تقـوله الصحف ومـا تتناقله الأفواه. إبتعد عن الفلسفة والشعر وعن كل موضوع لا يمكن تحـديده أو التعبيـر عنه بـوضوح وجـلاء ولـذلـك اهتم فقط بالعلوم المستندة على المراقبة والأختبار. هرب من المنظرين ومن النـظريـات والتجـأ إلى صـداقــة «الإنتهـازي» ألكسي سوفورين مدير صحيفة «NOVOIE VEREMIA» الذي أصبح فيما بعد ناشر قصصه.

كان ألكسي سوفورين من عامة الشعب وكان جـده يعمل خادماً عند أحد الإقطاعيين. عمل مـدرساً في إحـدى القرى النائية وانضم بعدئذٍ إلى ميدان الصحافة فأصبح مديـراً لأهم الصحف اليومية وأوسعها انتشاراً في موسكو هي «NOVOIE VREMIA». حصـل على ثروة محتـرمـة وأنشـأ داراً للنشـر وحصـل من الدولـة على امتياز استغـلال كافـة أكشـاك بيـع الصحف والمجـلات في محطات السكـك الحديـدية الأمـر الذي أضاف ثروة إلى ثروته. مع ذلك ورغم ميوله الإنتهازية وسياسته الرجعية المؤيدة للطبقة الحاكمة فقد كان كاتباً ومؤلفاً مسرحياً يحب الأدب والأدباء ويتابع عن كثب أعمالهم ويوسع لهم في صحيفته مجال نشر ما يكتبون. أحبه تشيكوف وقدّر فيه ذوقه الأدبي وروحه المنفتحة وتقديره للقيم والفن وصدق أحكامه المستندة على تجاربه الشخصية ومتعة التحدث معه.

قال عنه انطون في رسالة إلى صديقه إيڤان شتيغلوف مؤرخة في ١٨ يونيو (حزيران) ١٨٨٨ ما يلي: «إنه شخص عظيم. في حقل الفن يتصرف بحدس شيطاني ويندفع بجنون لشرح آراءه. إنه مُنَظِّر سيء، لم يدرس العلوم ويجهل الكثير عن الأشياء. عصامي علّم نفسه بنفسه ولذلك برز استقلاله التام وعدم تحيزه في الحكم على الأمور. إن التحدث معه لذة حقيقية لأنه يتكلم بإخلاص لا يوجد عند أغلبية المحدثين».

توطدت أواصر الصداقة بين الشاب تشيكوف والعجوز سوفورين من خلال توافق آراءهما وميولهما: يحبان الكتب والمسرح وصيد الأسماك وحتى زيارة المقابر. كان الإثنان يحتقران الرجال وكان سوفورين أحد أكره الرجال لدى المواطنين الذين لم يغفروا له انتهازيته السياسية والميول الرجعية لصحيفته ولكن تشيكوف أحب سوفورين لأنه لا يهتم بالسياسة ولأنه اقتنع من صفاء روح سوفورين وإخلاصه للأدب والفن. في عام ١٨٨٥ بدأ سوفورين ينشر قصص تشيكوف ويشجعه على الإستمرار في كتابة القصص ويدفع له مبالغ تزيد عما يولّده بيع هذه القصص من أرباح من أجل إقناع تشيكوف بفائدة الكتابة.

الانطلاق

في عام ١٨٨٠ وكان انطون قد بلغ العشرين من عمره نشر في المجلة الساخرة «LA CIGALE» أول قصة قصيرة له وكانت بعنوان «رسالة صاحب أرض في حوض الدون إلى جاره العالم» وكان كل همه من وراء نشرها الحصول على بعض الروبلات. كيّف تفكيره وأعماله الأدبية آنذاك بحيث يلبي كافة الأذواق وكل الطلبات. في عام ١٨٨٠ نشر تسع قصص وفي عام ١٨٨١ نشر ثلاث عشرة قصة وفي عام ١٨٨٥ بلغ عدد القصص القصيرة مع التقارير الصحفية التي نشرت له ما يزيد عن ١٣٠ قطعة. استخدم الإسم المستعار أنتوشا تشيكهونت في هذه القصص والتقارير.

منذ عام ١٨٨٢ بدأ انطون يتعاون في تحرير مجلة ساخرة في سان بترسبورغ عرفت نجاحاً متواضعاً ومع ذلك كتب أنطون لشقيقه ألكسندر «أود أن أخبرك بأن المجلة أصبحت الآن مجلة يقرأها الجميع. لقد أصبح لي الحق الآن بأن أنظر إلى المجلات الأخرى باستعلاء». كان انطون يشعر في

قرارة نفسه أن بإمكانه الكتابة في أي موضوع. ذكر شقيقه ميشال في مذكراته «ذكر أحد الأصدقاء أمامه أن من الصعب انتقاء موضوع القصة فتطلع نحوه انطون مشيراً إلى منفضة سكاير وقال: «أنظر إني أستطيع أن أكتب غداً قصة قصيرة تحمل عنوان «منفضة السكاير».

شيئاً فشيئاً تحسنت الأحوال المادية لأنطون وصار بإمكانه أن يقضي بضعة أيام في كل شهر للراحة والإستجمام. استأجر لعائلته منزلاً في مقاطعة بابكيتو أمضت فيه العائلة صيف عام ١٨٨٥ و١٨٨٦ و١٨٨٧. جذبه جمال الطبيعة بحيث وصف المناظر الريفية بطريقة جذابة جعلت القارىء يتطلع بشوق إلى زيارة الأماكن الريفية التي وصفها انطون في قصصه. وجد انطون في الطبيعة ملجأً أميناً عندما تداهمه كوارث الحياة. منذ حداثته كان يحب بصورة غريزية الجلوس على ضفاف نهر وبيده قصبة صيد السمك ويستغرق في التفكير بحيث أنه لا يشعر عندما تعض سمكة سنارته. كان يحب هدوء الريف والإبتعاد عن ضجيج المدن ويمضي ساعات طوال وهو يتأمل في الطبيعة ويفكر. تراكمت عليه الهموم، هموم أشقاءه وهموم تدبير أمور معيشة عائلته ومنذ عام ١٨٨٤ بدأ يبصق الدم. لكنه لم يأبه بذلك ورفض أن يفهم ماذا يعني بصق الدم رغم أنه طبيب. كان يريد أن يعيش ويحب الحياة بشغف هذه الحياة التي بدأت منذ

عام ١٨٨٦ تبدور له مليئة بالوعود الباسمة بعد أن بدأ اسمه يشتهر في الأوساط الأدبية.

أصبح عمر انطون تشيكوڤ ٢٦ عاماً. أعجب بأعماله رجال مشهورون مثل تشايكوفسكي وكورولنكو وأحاطت به نساء جميلات من الوسط الأدبي والفني كالشاعرة تاتيانا كوبرنيك والممثلة المسرحية ليديا يانورسكايا والجميلة ليكا ميزينوفا. رغم جمال هذه الأخيرة أغضبته بعدم استقرارها وبطلباتها ونزواتها. كتب انطون مرة رسالة إليها في عام ١٨٩٢ قال فيها: «أيتها النبيلة والشجاعة ليكا. حالما كتبت لي بأنك لا تلزميني بأي شيء تنفست بحرية ولذلك أكتب إليك هذه الرسالة دون أن أخشى أنك ستستخدمينها ضدي لإجباري على الزواج منك. من جهتي أؤكد لك إن رسائلك لي هي في نظري أزهار معطرة وليست وثائق لإدانتك. إلى اللقاء إذاً يا حبة الذرة في نفسي. أغار من حذائي القديم الذي تركته عندك لأنه يراك في كل يوم ولا أريد منك أن تعيديه إليّ» وعندما انتشر وباء الكوليرا هب انطون لمساعدة فرق المكافحة وعندما طلب من ليكا أن تعمل هي أيضاً في مساعدة المصابين رفضت ذلك فكتب إليها رسالة توبيخ قال فيها: «إنك كسولة ولذلك أنت مريضة وتبكين على الضحايا الذين يموتون في كل لحظة. أرجوك ألا تبيني أعذارك لعدم المساعدة لأني لن أقبل هذه الأعذار أبداً. مع ذلك أنتظرك وأحلم بوصولك كما يحلم البدوي

بـالماء في الصحـراء». فهل كـان انطون يحبهـا؟ ربما على طريقته المترددة شبه السـاخرة. على كـل حال لم تـدم هذه العلاقة بينهما زمناً طويلاً إذ سرعان ما ابتعد عنها.

كانت صداقته للروائية الشابة ليديا افيلوفا التي تعرف إليها خلال إحدى رحلاته إلى سان بترسبورغ عذرية أيضاً. كـان يعـطيهـا نصـائحـه الأدبيـة ويسمعهـا من حين لآخـر بعض الكلمات التي تدل على حبه لها. رغم أن ليديا أكـدت في مذكراتها أن تشيكوف أحبها بعمق فلا يستطيع المتتبع لحياة تشيكوف أن يجزم بذلك. ذكر سوفورين في يومياته أن انطون كـان يفضل الصـداقة على الحب. «يحبني أصـدقـائي وأنـا أحبهم ومن خلالي يحب واحدهم الآخر ولكن الحب يخلق العداء بين الذين يحبون نفس المرأة. في الحب يـريد كـل عاشق أن يمتلك المرأة التي يحبها دون أن يشاركه في ذلك أحد أما في الصداقة فلا وجود للغيرة ولذلك أفضل الصداقة على الحب حتى في الزواج».

ولكن انطون رغم عدم رغبته في الإرتباط الحميم بـامرأة حـرصاً على حـريته الشخصيـة كـان يحب معـاشـرة النسـاء الجميـلات على ألا يـطلبن منـه الكثيـر مقـابـل حبهن ومجاملاتهن له. كانت أولغا كنيبر المرأة الوحيدة التي أحبها انطون بصدق ولكن حبه لها لم يحدث إلا في أواخر سنوات حياته القصيرة.

في عـام ١٨٩٢ حقق حلم حياتـه. اشترى منـزلاً تحيطه حديقة جميلة وأشجار باسقة. لقد ملّ من السكن في منازل يملكها آخرون أو في غرف الفنادق خـلال تنقلاتـه العديـدة داخل روسيا وخـارجها. في عـام ١٨٩٠ ذهب إلى جزيـرة ساخالين وفي عام ١٨٩١ زار ڤيينا والبنـدقية وفلورنسـا وروما ونابولي وباريس. شعر بسعادة كبيرة بعد شراء المنـزل. قال في رسالة إلى شقيقة ألكسندر في ٢١ مـارس ١٨٩٢ (كان شقيقه يعمل بعيداً عن موسكو) «أصبحنا نعيش على أرضنـا وفي منـزل خاص بنـا. أصبحت آكـل خبـزي مبلولاً بعـرق جبيني لأنه أصبح عليّ أن أحرث أرض الحديقة لكي أزرعها وأتـذوق محاصيلهـا». أطلق انطون على هـذا المنـزل اسم «ميليكـوفو». أمضت الشـاعرة تـاتيانـا كوبـرنيك عـطلتها في ميليكوڤو وأسر إليها انطون بأنه سيمتهن الزراعة بعد أن يترك ميدان الأدب. أحب الأزهار وعشق الثمار وكان يتفـاخر بمـا تنتجه أشجار حديقته.

كان ارتباط تشيكوف بالطبيعة وتعلقه الشديـد بها ضـرورة حيـوية لـه ولكن فردوس تشيكـوف كان يفسـده المـدعـوون والمرضى. غصت غرف المنزل وحديقته الواسعـة بالأقـارب وأقارب الأقارب الذين كانوا يأتون لتمضية بضع ساعـات في التمتع بالطبيعة الخلابة فكان وجودهم يثير الضجيج كما يثير أعصاب انطون الذي كان كل همه أن يحيط به الهدوء التام

عندما يكتب.. قرر عندئذٍ أن يبني له غرفة منعزلة في طرف الحديقة ليكتب فيها. في هذه الغرفة كتب تشيكوف أجمل قصصه: «الغرفة رقم ٦» و«الموجيك» و«قصة مجهول» و«الراهب الأسود» و«ثلاث سنوات» و«اريادنا» وأخيراً «النورس».

إنتشر خبر كونه طبيب بين الفلاحين في الضواحي. كان يؤم منزله في كل صباح النساء والأطفال ينتظرون على الباب. كان يفحصهم ويعالجهم ويعطيهم أدوية من المخزون لديه. ظل تشيكوف يعالج الفلاحين حتى عام ١٨٩٧ عندما إضطر للتوقف بسبب سوء صحته إذ أصيب بمرض نفث الدم فوصفه أطباؤه بضرورة الراحة التامة وتبديل مكان سكنه. قال تشيكوف في رسالة بعثها إلى صديقة سوفورين وأوردها هذا الأخير في يومياته حول عمله كطبيب في منزله. «كان الفلاحون وأصحاب الحوانيت الصغيرة يؤمون المنزل منذ الفجر وينتظرون ساعة خروجي إليهم. واحد مصاب بالنزف وآخر تحطمت ذراعه بسبب سقوط شجرة عليها وثالث يصطحب ابنته المريضة. لو لم أعتني بهؤلاء وأعالجهم لماتوا حتماً. لذلك يحيوني ويرفعون قبعاتهم عند مروري في الأزقة والشوارع ويعتبرونني راعيهم وكاهنهم». كانت سنوات ممارسته الطب في ميليكوفو مفيدة جداً له إذ سمحت له بكتابة قصتيه الشهيرتين «الموجيك» و«في الوادي». خلال

انتشار وباء الكوليرا ابتعد تشيكوف عن الكتابة وخصص كل جهوده لمعالجة المصابين. أثار حماس المثقفين وجعلهم يهتمون بأمور المرضى. قال في رسالة إلى صديقه سوفورين في ١٠ أكتوبر ١٨٩٢ حول وباء الكوليرا ما يلي: «المثقفون يعملون ليل نهار ولا يوفرون لا مالهم ولا صحتهم. لقد عمل الأطباء والمثقفون عجائب في نينجي. في الأيام الخالية كان آلاف من الأشخاص يمرضون ثم يموتون دون أن يهتم أحد بأمرهم. لقد عالجت خلال شهرين أكثر من ٥٠٠ مصاب وفحصت أكثر من ألف مريض. كانت الحياة شاقة ولكني كنت أشعر بسعادة لا توصف وأنا أقوم بهذا العمل. شعرت بلذة العيش في ميليكوفو».

تم تعيين تشيكوف طبيب المقاطعة في عام ١٨٩٢ فكان بالإضافة إلى اهتمامه بالمستشفيات والشؤون الصحية بوجه عام وجّه اهتمامه أيضاً إلى المدارس. أنشأ مدارس جديدة وأعاد تنظيم المدارس القديمة وكان يدفع نفقات البناء والأدامة من جيبه الخاص. لكن في عام ١٨٩٧ أصيب بنوبة شديدة من مرض نفث الدم فتوقف تماماً عن كل نشاط أدبي واجتماعي.

لم يعترف أبداً بأنه مريض ولم يقبل العلاج الذي يصفه الأطباء له. كان يعتقد بفائدة العيش في الأرياف ولكن لم يحسن سكناه في ميليكوفو حالة صحته التي ظلت تسوء من

شهر إلى شهر. ذكر في رسالة مؤرخة في ٢٤ أكتوبر ١٨٩٢ إلى صديقه شتيغلوف ما يلي: «هل هو التقدم في العمر أم الكسل من العيش. لا أعرف ولكن ما أعرفه هو أني لم أعد راغباً في الحياة وليست لي رغبة في الموت. أرى نفسي وكأنها مسمرة في حلم جليدي». ولكنه كان شديد التعلق بالأدب ويشعر أن عليه الإستمرار في الكتابة حتى على حساب صحته. هرب إلى خارج روسيا مع صديقه سوفورين وزار ايطاليا وفرنسا بحثاً عن الراحة ولكنه ظل يسعل ويبصق الدم.

بعد الأزمة المرضية في مارس ١٨٩٧ فكر جدّياً بترك موسكو وميليكوفو وبالأخص بعد وفاة والده في المنزل في اكتوبر ١٨٩٨. وجد قطعة أرض في شبه جزيرة القرم على أبواب مدينة يالطا. شاد منزله على هذه القطعة وأشرف على تأثيث الغرف وتنظيم الحديقة المحيطة بالمنزل. كان يشاهد من نوافذ مكتبه المساحات الممتدة من الأراضي الزراعية ومن وراءها البحر ويشاهد من نافذة غرفة الجلوس قمم الجبال المحيطة بيالطا. لم يحب يالطا ولا الطبيعة فيها ولكنه كان يأمل بأن يشفى من مرضه في هذا الموقع الذي أوصى به أطباؤه. جعل من الحديقة واحة خضراء. قال في رسالة لألكسندر كوبرين في ٤ يناير ١٨٩٣ «لقد أتيت وحولت هذا الركن الضائع إلى مكان حضاري وجمالي. لا شك أن الحياة ستتحول هنا بعد ثلاثمئة لا بل بعد أربع مئة سنة إلى غابة

مليئة بالزهور والأشجار المثمرة وعندئذٍ سيكون العيش فيها لذيذاً وسهلاً».

ظل هذا الأمل يراود أفكاره وعبر عنه في العديد من قصصه الأخيرة كما لو أن هذا الرجل المريض والمنعزل الذي يدرك أنه بات قريباً من الموت يحاول دون شعور أن يجد عزاء له في رؤية إنسانية موجهة نحو الجمال والخير.. جاء في قصة «الشقيقات الثلاث» مثلاً ما يلي: «إن شعر رأسي بدأ يبيض. لقد أصبحت كهلاً تقريباً. لا أعرف سوى أشياء قليلة ولكن يبدو لي مع ذلك إني أعرف تماماً الشيء الأساسي. إن السعادة لا توجد ولا يمكن أن توجد ولن توجد لنا. إن علينا فقط أن نعمل ونستمر في العمل من أجل تأمين سعادة أحفادنا».

بدأ يشعر أن الحياة تغادره شيئاً فشيئاً ويعرف أنه مريض جداً ومعزول في منطقة لا يحبها بعيداً عن الوسط الأدبي وعن أصدقاءه وعن زوجته الممثلة المشغولة في عرض مسرحياته في موسكو. كتب رسالة إلى غوركي صديق سنواته الأخيرة في ١٥ فبراير ١٩٠٠ جاء فيها «إني أشعر بملل عظيم. إشعر بالملل لأني بعيد عن الرجال الأذكياء، بعيد عن الموسيقى التي أحبها وبعيد عن النساء اللواتي لا وجود لهن في يالطا». ذكر الكاتب إيڤان بونين في يومياته أن تشيكوف قال له في إحدى الأمسيات: «يقول تولستوي إن

الأديب لا يحتاج إلا لثلاثة أمتار من الأرض. وهذا حق الموتى فقط يحتاج كل منهم إلى ثلاثة أمتار من الأرض ليدفن فيها أما الإنسان الحي فيريد الكرة الأرضية بأكملها وبالأخص الأديب».

كان يكره الإفصاح عن مكنونات صدره لأنه كان مقتنعاً بأن لا أحد يستطيع أن يفهمه. قال تشيكوف في قصته «السيدة والكلب الصغير» التي نشرت عام ١٨٩٩ «عند كل شخص تسير الحياة الحقيقية وتمر الأحداث المهمة بالنسبة إليه تحت غطاء السرية. إن كل حياة شخصية تستند على السرية وتمارسها».

خلال السنوات الست التي قضاها تشيكوف في يالطا، من عام ١٨٩٨ وحتى وفاته كان دائماً محاطاً بخليط من المعجبين والزوار والأصدقاء. مع ذلك كانت عزلته في وسط هذه الجموع تامة. لم تسمح له نفسه المختلفة للغاية بأن يتكيّف مع الناس المحيطين به. عبَّر تشيكوف عن وحدته وعرى روحه من كل أسرارها في قصته «المطران» (١٩٠٢) التي يعتبرها النقاد أجمل قصة كتبها في حياته. تحدث في هذه القصة عن مأساته، مأساة رجل متفوق على وسطه وصل إلى مركز مرموق محاط بأصدقاء محبين لا يستطيعون فهمه ولذلك عاش في عزلة تامة. حتى والدته كانت تخشاه ومع أنها تحبه إلى آخر درجة كانت تبتعد عن طريقه. نعطي هنا



انطون تشيكوف أمام باحة منزله في يالطا.

عزيزين ووالدته العجوز وابنة شقيقته كاتيا وعمرها ثماني سنوات لتناول طعام العشاء على مائدته. خلال تناول الطعام كانت الشمس الربيعية تطل عبر النافذة وتضيء بأشعتها الشرشف الأبيض والشعر الأشقر لكاتيا. عبر الزجاج المزدوج للنوافذ كان يسمع صوت الخراف وتغريد الزرازير في الحديقة. قالت المرأة العجوز «لقد مضت تسع سنوات دون أن نرى بعضنا البعض. أمس عندما كنت تقيم القداس نظرت إليك. يا إلهي! لم تتبدل شيئاً فقط أصبحت نحيفاً أكثر وربما طالت لحيتك قليلاً». رغم الحنان الذي كان ينضح من كلماتها كان من الواضح أنها كانت تشعر بالحرج لأنها كانت تجهل عما إذا كان عليها أن تدعوه باسمه الصغير أم لا وعما إذا كان من اللائق أن تضحك أمامه. هو المطران المحترم. شعرت بأنها أرملة أكثر مما شعرت بأنها أم. قال لها المطران «يا والدتي لقد اشتقت لرؤيتك وأنا في الخارج. اشتقت إليك كثيراً» فأجابته «أشكرك»، «كنت أجلس أحياناً في المساء قرب النافذة المفتوحة وحيداً وأسمع صوت موسيقى آتياً من بعيد وكان ينتابني الحنين إلى الوطن بحيث كنت على استعداد للتخلي عن كل شيء لكي أعود كي أراك». إبتسمت والدته وأضاء وجهها ولكنها ما لبثت أن استعادت رصانتها وقالت فقط «أشكرك».

تغيّر مزاج المطران فجأة. نظر إلى والدته ولم يعرف من أين جاءه هذا التعبير الموقر والمتواضع الذي ارتسم على

وجهه وانطبع في صوته. لم يعد يعرف والدته. شعر بحزن عميق. بالإضافة إلى هذا الحزن أحس بألم في رأسه وارتجاج في ساقيه وبدا له السمك بدون طعم وشعر بظمأ كبير.

«حال عودته إلى الكنيسة قال صلواته بسرعة ثم ذهب إلى فراشه ونام بهدوء. فكر في الدير وفي كلية اللاهوت وبمحتوى أطروحته، لم يكمل الثالثة والثلاثين وقد أصبح مدير الدير ثم ترقى إلى منصب المطرانية. كانت الحياة سهلة وجميلة وتبدو طويلة جداً بحيث لا يرى نهايتها. في هذه الفترة أصيب بالمرض ونحف جسمه كثيراً وأوشك على فقد بصره ونزولاً عنه أوامر أطباؤه إضطر أن يتخلى عن كل شيء وسافر إلى الخارج. تذكر في الخارج كنيسته البيضاء، الجديدة، حيث كان يخدم وعاد إلى ذاكرته صوت أمواج البحر. كانت شقته مكونة من خمس غرف، عالية السقف ومضاءة وكان لديه في غرفة مكتبه الجديد مكتبة زاخرة بالكتب. كان يقرأ كثيراً ويكتب غالباً. تذكر حنينه إلى الوطن وبالمتسولة العمياء التي كانت تغني كل يوم تحت نافذته أغاني الحب وهي تعزف على القيثارة فكان عند سماعها يعود بذاكرته إلى ماضيه؛ مضت ثماني سنوات وهو خارج وطنه. دعي للعودة إلى روسيا وهذا هو الآن مطراناً مع كل الماضي الذي غاب في الضباب كحلم بعيد».

«نسي وهو في الخارج عادات الحياة في روسيا وعند عودته وجدها صعبة. بدا الناس له غير مهذبين والنساء اللواتي كن يأتين إليه لطلب النصائح، مملات وغبيات والطلاب والأساتذة في الدير جهلة وبشعين. لم يتمكن من الاعتياد على الخوف الذي ينشره حوله دون إرادة رغم طبيعته الهادئة والمتواضعة. كان الجميع أمامه وجلين حتى الكهول من رؤساء الكهنة. منذ أن تسلم منصبه لم يتحدث معه أي رجل بإخلاص وببساطة كرجل تجاه رجل. حتى والدته العجوز لم تعد كما كانت. لقد تغيّرت تماماً».

«جلس المطران خلف المذبح في زاوية معتمة. انهمرت الدموع على خديه. فكر بأنه حقق كل ما يطمح إليه رجل في منصبه. كان قلبه طافحاً بالإيمان ولكن رغم ذلك لم تبدو الأمور واضحة تماماً له. كأن شيئاً ما ينقصه وكان لا يريد أن يموت. بدا له أن هذا الشيء المهم للغاية، الذي حلم به في السابق لم يحصل عليه بعد وأن نفس الأمل القديم يشغل باله الآن كما شغل باله في السابق خلال طفولته ثم في الدير وبعد ذلك في الخارج».

«إنتصر المرض على المطران وتوفي قبل بضعة أيام من عيد الفصح. بعد انقضاء شهر على وفاته تم تعيين مطران جديد خلفاً له ولم يعد أحد يتحدث عن المطران المتوفي. نساه الجميع بسرعة. فقط والدته العجوز التي انتقلت للسكن

عند صهرها الشماس في مدينة صغيرة في الريف. كانت في كل مساء تقود بقرتها في الحقل وتقابل نساء أخريات فتبدأ بالتحدث إليهن عن أولادها وأحفادها وبالإبن الذي فقدته، المطران. كانت عندما تأتي إلى ذكر ابنها المطران تخشى ألا تصدق تلك النسوة أن ابنها كان مطراناً فعلاً. والواقع أن لا واحدة منهن صدقتها». (المطران - ١٩٠٢)

توفي انطون تشيكوف بعد انقضاء سنتين على نشر قصة «المطران» في يوليو (تموز) ١٩٠٤. في قصة «المطران» توفي المطران في عمر الواحدة والأربعين وتوفي تشيكوف في عمر الرابعة والأربعين.

في شهر أبريل (نيسان) ١٩٠٣ قام إيڤان بونين بآخر نزهة مع تشيكوف في شوارع المدينة. قال بونين في كتابه «تشيكوف» عن هذه النزهة ما يلي: كان المساء ناعماً وهادئاً وكان القمر يرسل نوره عبر غيوم بيضاء خفيفة ومتفرقة. كانت العربة تسير في الشارع الأبيض إلى أن وصلنا إلى الغابة. تركنا العربة وبدأنا نسير على قدمينا عبر أشجار الصنوبر وعلى مساواة امتداد أنقاض القصر. توقف تشيكوف فجأة وقال: «أتعرف عدد السنوات التي ستظل فيها كتبي تقرأ؟ سبع سنوات». فبادرته متسائلاً: «ولماذا سبع سنوات؟» أجابني: «لنقل سبع سنوات ونصف». أجبته متعجباً: «إنك حزين هذا المساء يا انطون تشيكوف» أضاف وكأنه لم يسمع ما قلته:

«ستقرأ كتبي رغم كل شيء لمدة لا تقل عن سبع سنوات. أما أنا فسوف أعيش عدداً أقل من السنوات. ربما ست سنوات على الأكثر».

بعد أربعة عشر شهراً كتب ماكسيم غوركي إلى زوجته «لقد دفنا انطون تشيكوف. لقد أحزنني جداً موته. هذا الرجل الممتاز، هذا الفنان الجميل الذي كافح طوال حياته ضد السطحية. انطون تشيكوف الذي آلمه كل ما هو مبتذل وعادي نقل جثمانه في عربة شحن ودفن بجوار قبر أرملة من القوزاك. كلما أتذكر تفاصيل نقل جثته أو دفنه في قبر عادي كما يدفن أحقر الناس ينكمش قلبي وأشعر بأني على وشك الإنفجار. بالنسبة له فالأمر غير مهم أنقلت جثته في عربة جمع القاذورات أم في عربة لشحن المواشي ولكن نحن، المجتمع الروسي، لا يمكن أن نغفر للذين نقلوا الجثة. كان الذين ساروا في جنازته وبلغ عددهم خمسة آلاف يتحدثون عن كافة الأمور ويخططون كيف وأين سيمضون سهرتهم تلك الليلة. إهتم بعضهم بي وبصديقي شاليابين ولكنهم لم يتحدثوا أبداً عن تشيكوف. لقد بكى شاليابين وصاح من أعماق قلبه «ألمثل هؤلاء الحثالة عاش انطون وعمل ودرّس وكتب».

تشيكوف العالم

قال تولستوي إنه كـان بمقدور تشيكـوف أن يصبح روائياً أعظم لو لم يكن طبيباً لأن الطب كان يزعجه. ولكن تشيكوف لم يكن موافقاً على هذا الرأي حسب مـا تؤكده رسـالته إلى الدكتور روسوليمو المؤرخة في أكتوبر ١٨٩٩. «لا أشك أبداً أن دراستي للطب كان لها تأثير خطير على نشـاطي الأدبي. لقد وسع الطب آفاق ملاحظاتي وأثراني بمعرفة ذات قيمة لا يمكن أن يثمنها إلا كاتب طبيب مثلي». وقال في رسالة إلى صديقه سوفورين: «أشعر بأني أكثر استعداداً وراضياً أكثر من نفسي لأني أعرف بأني أمارس "مهنتين" بدلاً من مهنة واحدة: الكتابة والـطب». قال على لسـان أحد أبـطال قصته «قصـة كئيبـة» ما يلي: لم تـوفر لي أي تسليـة أو ريـاضـة أو لعب السعادة التي أشعر بها عندمـا أعطي الـدروس للطلاب. أما الآن وأنا على عتبة المـوت صرت لا أهتم إلا بـالعلم وحتى عندما ألفظ أنفاسي الأخيرة سأظل أؤمن أن العلم هو الشيء الأعظم أهمية والأعـظم جمالاً والأعـظم ضرورة في الحيـاة

البشرية. لقد كان العلم دائماً وسوف يظل دائماً التعبير الأسمى للحب وبفضل العلم سينتصر الإنسان على الطبيعة كما على ذاته». في رسالة إلى سوفورين بتاريخ ٣ نوفمبر ١٨٨٨ قال تشيكوف: «إن الذي يملك طريقة علمية يشعر في قرارة نفسه أن هناك قاسم مشترك بين قطعة موسيقية وشجرة ويدرك أن الإثنين خلقا وفق قوانين منطقية وبسيطة». بالنسبة لتشيكوف لا يملك العمل الفني الخلاق أي قيمة إلا إذا سمح بأظهار الحقيقة كما هي وإلا إذا علّم الرجال حقيقة وجودهم وإلا إذا ابتعد عن كل أشكال الإيهام والرياء. فالإيهام والرياء يعيقان تقدم الإنسانية ويقضيان على السعادة المستقبلية للإنسانية. ذكر تشيكوف في مذكراته: «ينظر الرجل العادي إلى القمر ويحس بمشاعر مبهمة أمام هذا الشيء الغريب الذي لا يفهم سره ولكن العالم الفلكي ينظر إلى القمر بعينين مختلفتين لأنه لم يعد ينظر إليه وكأنه شيء مبهم وكذلك الأمر بالنسبة لي كطبيب». وحسب ما أكده ماكسيم غوركي كان تشيكوف يصر على وجوب أن يكون الروائي مراقباً ثاقب البصر لا يتعب ولا يمل وإن عليه أن يثقف نفسه بحيث تصبح المراقبة عادة لديه بل طبيعة ثانية.. قال غوركي في مذكراته: «لا يوجد أي شيء في أعمال تشيكوف لا يوجد في واقع الحياة البشرية. تكمن قوة نبوغه في أنه لا يخترع من عندياته أي شيء بل يصف واقع الحياة كما راقبها. إن هدفه الوحيد كان الحقيقة المطلقة

والصادقة». قال تشيكوف في رسالة إلى شقيقه ألكسندر: «من يريد أن يهتم بحياتك أو بحياتي أو بأفكارك أو بأفكاري وبمأساتنا. يجب أن يكون الأديب موضوعياً كعالم الكيمياء ويجب أن يبتعد عن ذاتانية الحياة اليومية. يجب عليه أن يكون شاهداً غير متحيز. فإذا أردت أن تفهم الحياة امتنع عن تصديق ما يقال لك أو ما يكتب بل راقب الأمور بنفسك وفكر».

في عام ١٨٩٠ سافر رغم صحته السيئة وصعوباته المالية إلى ساخالين لدراسة أوضاع السجون وحالة السجناء هناك وقال عن هذه الرحلة إلى صديقه سوفورين الذي كان أوصاه بعدم السفر نظراً لحالته الصحية «أسافر وأنا متأكد بأن سفري لن يساهم مساهمة مؤثرة لا على الأدب ولا على العلم. من خلال النظر حولي وسماع ما يقال تعلمت الكثير من الأشياء. تقول بأن لا أحد يحتاج إلى ساخالين وأن هذه الجزيرة لا تهم أي إنسان. فهل هذا صحيح؟ قد تبدو ساخالين غير مفيدة ولا تدعو إلى الاهتمام بها ولكن ذلك يكون صحيحاً فيما لو لم ينفى إليها آلاف الأشخاص. إن ساخالين مكان لعذابات لا تحتمل ولا يمكن القبول بها وآسف لأني لست شاعراً لكنت قلت لك إنه يجب علينا الحج إلى هذه الجزيرة كما يحج الأتراك إلى مكة... لقد طردنا إلى هذه الجزيرة الجليدية بطريقة بربرية آلاف الأشخاص ووضعناهم تحت

رحمة سجانينهم الذين لا هم لهم سوى السكر وإفساد الأخلاق وصنع مجرمين من أشخاص كان كل ذنبهم أن تكون لهم آراء مختلفة عن آراء أحكامهم. إن كل أوروبا تعرف ما يجري في جزيرة سخالين. كيف يعامل السجناء هناك أما نحن فلا نهتم للأمر. إن سخالين ضرورية ومثيرة وكان بودي لو قام شخص غيري أكثر نشاطاً مني بزيارة هذه الجزيرة والكتابة عن الأحوال المشينة فيها لإثارة الرأي العام هنا».

وقال في رسالة أخرى لسوفورين: «لقد رأيت كل شيء. كنت أستيقظ عند الخامسة صباحاً وأنام في وقت متأخر من الليل. لقد زرت كافة المعتقلات وتحدثت مع كل سجين ومعتقل. لقد شاهدت عملية تعذيب للرجال وعملية ضرب بالسوط للأطفال. لقد حطمت هذه المشاهد أعصابي وبت أحلم بها في كل ليلة وأفكر بطريقة توقف عذاب هؤلاء المساكين. إن العالم الذي خلقه الله جميل وكل شيء فيه جميل ما عدا أنفسنا. لا نملك سوى قدر قليل من الرحمة والعدالة والتواضع ونفهم بطريقة ملتوية معنى الوطنية. تقول الصحف بأننا نحب بلادنا ولكن كيف يجب علينا أن نعبر عن هذا الحب؟ بالعمل وبالدراسة وبالعلم»!

عندما عاد من سخالين كتب بحثه الشهير «جزيرة ساخالين» الذي كان دراسة إجتماعية ونفسانية وجغرافية وعرقية أكثر من كونه بحث علمي بحت. كان بمثابة تقرير

عما رآه وسمعه وعايشه. عرض فيه بطريقة موضوعية مؤثرة حالة هذه الجزيرة وسكانها. كان يأمل أن يقدم هذا البحث كأطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في العلوم ولكنه لم يفعل ذلك والنتيجة الوحيدة التي جناها من عمله العظيم هذا كانت توجيه أنظار السلطات نحو حقيقة ما يجري في معتقلات ساخالين: ألغت السلطات نظام الجلد بالسوط وأرسلت بعثة تحري إلى الجزيرة لدراسة الحالة الميدانية وأوصت بإنشاء مدارس ومستوصفات ومآوي للعجزة ودور حضانة للأطفال وقد نفذت الدولة معظم هذه التوصيات.



انطون تشيكوف عام ١٨٩٩

تشيكوف الروائي والكاتب المسرحي

في مارس (آذار) ١٨٨٦ كتب انطون تشيكوف قصة «الصياد» ونشرت هذه القصة في ١٨ يوليو (تموز) ١٨٨٥ في مجلة «غازيت دي بترسبورغ» وكتب قصة «التعاسة» في ٢٧ يناير (كانون الثاني) ١٨٨٦ ونشرت في مجلة «NOVOIE VREMIA» في ١٥ مارس (آذار) ١٨٨٦. في ٢٥ مارس إستلم انطون رسالة من الروائي المعروف آنذاك ديمتري غريغوروفيتش يمتدحه فيها ويشجعه على الكتابة على أن لا يلجأ إلى استخدام إسم مستعار لأن قصصه التي قرأها أكدت له نبوغ تشيكوف «إنك تملك موهبة حقيقية تضعك في الصفوف الأولى من الروائيين والأدباء» وأعطاه بعض النصائح والتوجيهات. كان لهذه الرسالة تأثير معنوي حاسم على تشيكوف. للمرة الأولى يعتبره كاتب مشهور كزميل له.

مثلت البساطة والإختصار في التعبير والوصف نقطتين أساسيتين للجمالية في أسلوب تشيكوف «الكتابة باختصار أي

بموهبة لأن الإختصار هو شقيق الموهبة. يجب أن تكون اللغة بسيطة ورشيقة. يجب عدم استعمال كلمات غريبة عن اللغة وكلمات يندر استعمالها. من أجل التشديد على فقر متسولة لا لزوم للتحدث عن مظهرها البائس. يكفي أن يذكر الكاتب بأنها كانت ترتدي معطفاً قديماً رثاً. يجب التذكر عند الكتابة أن التفاصيل، حتى المثيرة منها، تبعث على الضجر لدى القارىء»

كان تشيكوف يتمتع بذاكرة مدهشة لكل ما يراه خلال جولاته حتى أدق التفاصيل التي لا تثير اهتمام الشخص العادي. ولكن رغم هذه الذاكرة المذهلة عرف كيف يلجمها عند وصف حادث أو منظر في قصصه. «برأيي يجب أن يكون وصف الطبيعة مختزلاً جداً على أن يشدّد على التفاصيل الصغيرة ويجمعها بحيث حالما يغلق القارىء الكتاب يتكون أمام عينيه شكل لوحة». ولكن تشيكوف لم يحقق هذه السيطرة على الوصف في بادىء عمله كروائي. في عام ١٨٨٨ نشر أول قصة طويلة له بعنوان «السهب» وصف فيها الطبيعة وصفاً مسهَباً ولكن مشوقاً أعجب القراء وعرفت قصته هذه نجاحاً مذهلاً. مع ذلك يعود نجاح وشهرة انطون تشيكوف إلى قصصه القصيرة التي استعمل في كتابتها أسلوبه التحليلي الذي أثار إعجاب الأدباء والنقاد. قال في رسالة إلى صديقه الحميم سوفورين: «ليس من واجب الكتاب حل المشاكل التي تقلق بال الناس. فدور الكاتب

يتمثل بعرض الشخصيات والظروف والشكل. لا يجب أن يكون الكاتب الحكم لا بالنسبة لشخصيات رواياته ولا بالنسبة لما يقولون. عليه أن يكون حكماً غير متحيز لأن الحكام هم القراء. فقط الأغبياء والمهرجون يدعون أنهم يفهمون ويعرفون كل شيء».

على المستوى الإجتماعي كان عليه أن يخدم وأن يساعد وأن يكافح طالما سمحت له صحته بذلك ولكن على المستوى الأدبي رفض أن يقبل آراء الكتاب الليبراليين الذين كانوا يصرون على أن على الكاتب أن ينحاز إلى رأي معين وأن يدافع عن هذا الرأي في كافة المجالات. ظل تشيكوف مستقلاً بعناد عن كل اتجاه سياسي وخصص كل جهوده لمهنته كفنان. لم يغره نجاحه وكان متأكداً بأن الناس لا تفهمه فيما يقوله من جديد وأساسي. «لمن أكتب؟ للجمهور؟ لا أراه ولا أعتقد بوجوده. إنه جاهل، سيء التربية وينقص النخبة فيه الضمير والإخلاص تجاهي. أكتب لكسب المال؟ لم يكن لدي أبداً مالاً كافياً ولذلك فإن قلة العادة تجعلني لا أهتم بوجوده أو بعدم وجوده. أكتب من أجل الحصول على الإطراء؟ الإطراءات تثير أعصابي».

إنه يكتب لأنه لا يجد مناصاً من الكتابة لأن الحاجة إلى الخلق قوية في داخله. كتب مسرحية «النورس» في عام ١٨٩٥ ولكنه شعر بأنه لم يخلق ليكون كاتباً مسرحياً.

مع ذلك فقد استمر في ارتياد كواليس المسرح ويكتب مسرحيات من حين لآخر. في قصته المسرحية «النورس» كشف تشيكوف للقراء عذاب مهنته المزدوجة كروائي وككاتب مسرحيات. وصف نفسه على لسان تريغورين بطل المسرحية الروائي الناجح وعلى لسان تريبليف كاتب المسرحيات الشاب الثوري. قال: «نهاراً وليلاً تلاحقني نفس الفكرة الملحة: يجب أن أكتب، يجب أن أكتب. ما لم أنهي كتابة قصة إلا وجدت نفسي مدفوعاً فوراً إلى كتابة قصة أخرى ثم أخرى. أكتب بدون توقف كما أن الزمن يلاحقني ولا أستطيع أن أعمل غير ذلك. آه كم هي الحياة غبية. إني بقربك ولكني لا أنسى ولو للحظة واحدة أن قصة غير مكتملة تنتظر فوق مكتبي. أرى سحابة على شكل بيانو فأفكر فوراً بأن عليّ أن أذكر في قصتي السحابة التي شبه شكل البيانو. ألتقط كلماتك وألتقط كلماتي ثم أسرع لحفظها في مخزن عقلي الأدبي. من يدري ربما سأحتاج إليها في أحد الأيام. حالما أنهي إحدى قصصي حتى أسارع إلى المسرح أو إلى صيد السمك عساي أن أنسى ولو مؤقتاً ضرورة الكتابة ولكن مكتبي يدعوني ويجذبني إليه فأسرع إليه لأكتب وأكتب. وهكذا في كل يوم. لا يتسنى لي فرصة للراحة وأشعر بأني ألتهم حياتي بالذات وأني أصنع العسل الذي أقدمه لغيري من رحيق أجمل أزهاري التي أقطفها ثم أدوس على جذورها. ألست مجنوناً؟ خلال سنوات حداثتي، تلك

السنوات الجميلة كانت مهنة الروائي عذاباً مستديماً لي. الكاتب الصغير الذي لا حظ له يفكر بأنه أخرق وأحمق ولا فائدة منه. يسير متوتر الأعصاب ويدور حول من اشتهروا في حقلي الأدب والفن، مجهولاً ومحتقراً يخشى أن ينظر إليهم وجهاً لوجه كالمقامر المتحمس الذي لا يملك مالاً ليقامر به».

«طالما أظل أكتب أشعر بالسعادة. يعلق النقاد على ما أكتب فيقولون: «إنه لطيف ويملك موهبة عظيمة ولكن لا يمكن مقارنة أعماله بأعمال تولستوي أو تورغينيف». سيظل النقاد والقراء يعيدون هذا القول حتى وفاتي وعندما أموت سيقول أصدقائي عندما يمرون بجوار قبري «هنا يرقد تريغورين. كان كاتباً جيداً ولكن أعماله لم تكن بمستوى أعمال تورغينيف». لم تعجبني نفسي أبداً ولا أحب نفسي ككاتب. إني أحب هذا النهر وهذه الأشجار والسماء. أشعر بجمال الطبيعة وتثير في المشاعر العميقة والرغبة في الكتابة ولكني لست رسام مناظر طبيعية فقط فأنا مواطن أحب وطني وشعبي وأشعر بأني مؤلف حقيقي يتوجب عليّ أن أتحدث عن الشعب وعن آلامه وعن مستقبله».

وقال على لسان تريبليف في نفس القصة «تعرف والدتي بأني لا أقبل المسرح كما هو عليه الآن. إنها تحب المسرح وتعتقد أنه يخدم الإنسانية والفن المقدس في حين أرى أن

المسرح المعاصر ليس سوى تكرار ممل وعمل متحيز. عندما يرفع الستار ويبدأ بالتمثيل تحت ضوء خافت هؤلاء العباقرة، كهنة الفن المقدس ليصوروا للمشاهـدين كيف يأكـل الناس ويشروبون ويحبون ويسيرون ويـرتدون ويحـاولوا من خـلال مشاهد مبتذلة وكلمـات ممجوجـة إعطاء المشـاهدين عبرة، صغيرة، يعرفها الجميع. عندما يقدمون دائماً نفس الشيء، نفس الشيء، نفس الشيء أسرع بالهرب كما فعل موباسان عندما هـرب بعيداً عن بـرج إيفل. يجب أن يقـدم المسرح أشكـالاً جـديـدة وإذا لم تـوجـد فـلا لـزوم للمسـرح على الإطلاق».

حـاول تشيكـوف إيجـاد هـذه الأشكـال الجـديـدة في مسـرحياتـه. رفضت طبيعتـه النـاضجـة الإلتـزام بـالقـواعـد المسرحية السائدة التي كـانت تعتبر آنـذاك قواعـد لا يمكن مسها أو تجاوزهـا. رغم ذلك تمكنت مسـرحياتـه من فرض نفسهـا وقواعـدها الجـديدة «مـا الفائـدة من شرح أي شيء للمشاهدين؟ يجب إخافتهم وهذا هو كل المطلوب. عندئذٍ سيهتمون بما يجري على خشبة المسرح ويبدأون بالتفكير مرة أخرى». إلتزم تشيكوف بدوافعه الشخصية. ألم يكـرر مراراً بأن على الشخص عدم الأخذ بنصائح الآخرين؟ «إذا أخطأت فـإن خطأك يعـود إليك وحـدك. يجب أن تعمل وأن تكـون مقـداماً وجسـوراً في عملك. توجـد في هذا العـالم كلاب

صغيرة وكلاب ضخمة ولكن ليس من المفروض أن تتوقف الكلاب الصغيرة عن أداء مهمتها بسبب وجود كلاب ضخمة، على الجميع أن ينبحوا وأن ينبحوا بالصوت الذي منحه الله لهم».



تشيكوف عام ١٨٩٧

الفنون التي أحبها انطون تشيكوف

من بين كافة الفنون لعبت الموسيقى الدور الأعظم في حياة وأعمال تشيكوف ويبدو أن الفنون التشكيلية لم تعجب تشيكوف بل وحتى كان يجهلها تماماً. فإذا كان قد امتدح في رسائله وهو في الخارج بمدن الفن فقد كان ذلك بسبب جمالها الطبيعي الأخاذ أكثر من أمجادها الفنية. في عام ١٨٩١ سافر برفقة صديق عمره سوفورين إلى ايطاليا وزار البندقية فسحر بجمالها ومبانيها وساحاتها العامة والممرات المائية التي يستخدمها السكان للتنقل بالجندول بدل العربة. قال سوفورين في مذكراته «كل شيء حي، مثير وكل شيء ملون وفرح وشاعري كان يحبه على الطبيعة. كان يثيره صوت أجراس محطات القطار في إيطاليا وصوت بائعة الأزهار وهي تعرض بضاعتها وكان يعتبر هذه الأشياء ضرورية وفورية ومثيرة أكثر من الجمال البعيد لقصور البندقية».

من بين كل الرسامين لم يحب بقوة سوى أعمال الرسام إسحق ليفيتان الذي اعتبره شقيقه الروحي بسبب اعتناقهما

نفس المبادىء الجمالية. فكان سبب حبه لهذا الرسام وتفضيل أعماله على أعمال الفنانين العظام في عصره أمثال سيزان ومونيه وبيسارو ورينوار وڤان غوغ لأن مواضيع لوحات هذا الفنان كانت عزيزة على قلب تشيكوڤ. كلاهما يحب بقوة المناظر الطبيعية في مناطق وسط روسيا وبالأخص ضواحي موسكو. بعد أن أجبره الأطباء على الإقامة في يالطا ظل يردد «موسكو، موسكو». كان تشيكوڤ يقول بالكلمات ما كان ليفيتان يوصي به في رسومه: الشعر الحزين للأشياء، تلك الروحية المخيفة خلف مظاهر العالم المادي في قصته «الخطيبة» وصف ليلة من ليالي مايو «كانت الحديقة هادئة وهواؤها منعش والخيالات المظلمة الساكتة تمتد على الأرض. . كان يسمع من بعيد، من بعيد جداً، نقيق الضفادع. كان يشعر الشخص بأنه يعيش أيام شهر مايو، هذا الشهر الجميل. يتنفس بعمق ويريد أن يعتقد أن هناك، بعيداً في الأعلى تحت قبة السماء وفوق قمم الأشجار، بعيداً جداً عن المدينة، في الحقول والغابات تزدهر الآن الحياة الخاصة للربيع، الحياة السرية، الغامضة، الجميلة، الفنية والطاهرة التي لا يمكن أن يعيشها الرجل الضعيف الإرادة والخاطىء فيشعر هذا الشخص عندئذٍ بالرغبة في البكاء».

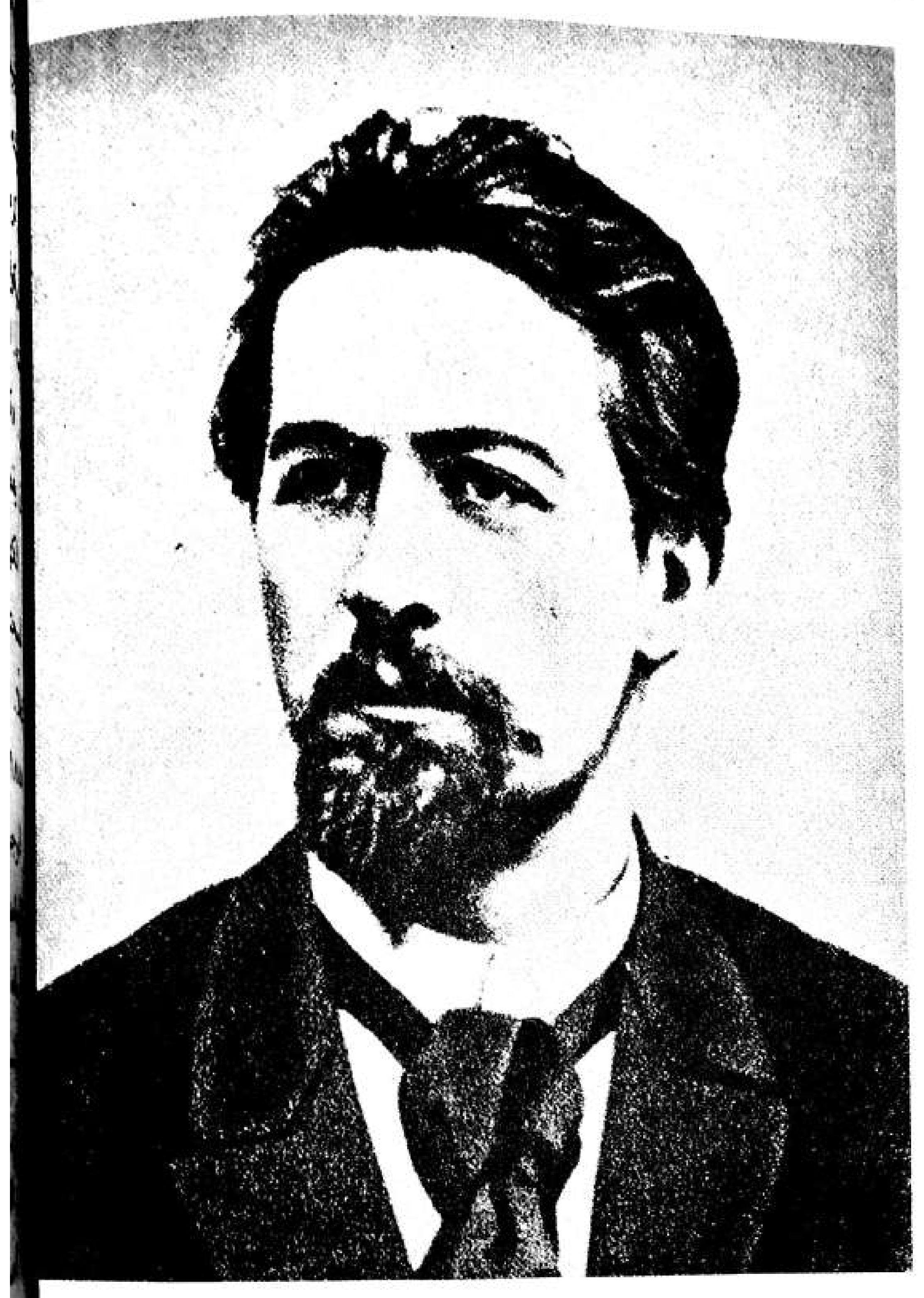
بالنسبة لتشيكوڤ كانت الموسيقى الفن الأسمى. «العمل الأكثر كمالاً للشاعر هو الذي يشكل موسيقى ممتازة». كان

كل أفراد عائلته يحبون الموسيقى باندفاع. كان والده على جهله يعزف على الكمان ويدير جوقة موسيقية تعزف التراتيل الدينية.. لم يتعلم انطون العزف على أي آلة موسيقية ولكن تراتيل الكنيسة كانت مألوفة لديه منذ صغره وأحبها طوال حياته بعمق. «تراتيل الكنيسة وصوت الأجراس. هذا كل ما تبقى لدي من الدين». كان يكتب تحت ألحان موسيقى شوبان التي كان شقيقه نيقولا يعزفها على البيانو. ذكر في قصته «قصة مجهول» كيف أن قطعة «سوناتا تحت ضوء القمر» أثارت عند الرجل المنعزل والمريض شعور الأمل. «كيف يعزف بمثل هذه البراعة. أردت في بادىء الأمر أن أبكي ولكن حياتي بدت لي أفضل حالاً مما كنت أعتقد وأن بإمكاني اليوم أن أبدأ الحياة من جديد. لن يمنعني السل الرئوي من أن أتمتع بالحياة لأن بالإمكان معالجته في القاهرة أو في جزيرة ماديرا وهنا على هذه الأرض مادة خصبة لحياة سعيدة ومثمرة وسامية». كان تشيكوف يعبد «سوناتا تحت ضوء القمر» فكان عند سماع هذه القطعة الموسيقية ينصت إليها باهتمام بالغ فيضيء وجهه وتتخذ عيناه بريق السعادة. أهدى مجموعة قصصه «الرجال التعساء» إلى تشايكوفسكي. «في الفن الروسي يحتل تشايكوفسكي الآن المقام الثاني بعد ليون تولستوي الذي يحتل منذ زمن طويل المقام الأول. أعطي المقام الثالث إلى ريبين وأحتفظ لنفسه بالمقام الثمانية وتسعين». (من رسالة إلى ابن تشايكوفسكي مؤرخة في ١٦

مارس ١٨٩٠). كانت الموسيقى موجودة دائماً في قصصه. لقد رأينا أن لغته الشاعرية وأسلوب تأليف القصص المأساوية استندا على إيقاع موسيقي حقيقي. في قصته «الأعداء» قال تشيكوف على لسان بطل الرواية «هذا الجمال الرقيق للعذاب البشـري الذي يشعـر بالكـاد والذي لا يتعلم الشخص كيف يفهمـه وكيف يصفـه تستـطيـع المـوسيقى فقط تـرجمتـه وتفسيره». آمن أن الموسيقى تستطيع ترجمة كـل شيء لأنها تتغلغـل في كل شيء وتصبـح مسموعـة من كـل أذن تـريـد سماعها أكانت أذن رجل أم أذن طفل.

ذكر تشيكوف في يومياته. «يبدو الحب الشاعري عارياً من المعنى تماماً ككرة من الثلج المتجمد تتدحرج بغباء من قمة الجبـل فتحطم الـرجال تحت ثقلهـا. ولكن عنـدمـا يسمـع الإنسان الموسيقى يبدو كل شيء مهيباً وجليلاً حتى كرة الثلج لا تعد تبدو غبية لأن كل شيء في الطبيعة له معنى».

الأخلاق والدين لدى تشيكوف



صورة انطون تشيكوف عام ١٨٨٩

«السعادة والفرج لا يوجدان لا في المال ولا في الحب بل في الحقيقة» هكذا قال تشيكوف لصديقه سوفورين. ولكن ما هي هـذه الحقيقة. خـلال الثمانينـات لم يكن تشيكوف قـد انفصل نهائياً عما أسماه «إرث العبودية» هذا الإرث المكون من الأكاذيب والإضطهاد والخداع والحسد والفظاظة والجهل الذي عايشه منذ طفولته وخلال حداثته ولكن هذا الإرث ترك في نفسه كره كل شكل من أشكال السلطة. وكرهـه للسلطة أوحى لتشيكوف الملاحظات الفظة حول الكهولـة التي دونها في يومياتـه. اعتبـر أن الكهـول يجسـدون التقليـد والـروتين والتعصب. «كل ما لا يستطيع الكهول أن يفعلوه غير مسموح لغيرهم أن يفعلوه. لم أسمع من الكهول إلا كلمات سخيفة ومنافقة. الكهول شرهون ومتعجرفـون ومكروهـون». ولكن كان من المحتمل جـداً أن يغيّر هـذه الأقوال فيمـا لو عـاش ليصبح كهلاً. كتب رسالة إلى صديقه بليشتييڤ مؤرخة في ٤ أكتـوبر ١٨٨٨ مـا يلي: إني لا ليبرالي ولا محـافظ وأسمى شيء في الوجود بالنسبة لي هو جسم الإنسان وصحته وذكاءه وموهبته وإلهامه وحبه وحريته المطلقة. أحب الطبيعة والأدب وأحب النسـاء الجميلات وأكـره الـروتين والإستبـداد. ليس الإستبـداد السياسي فقط بـل كل أشكـال الإستبداد». أحب أعمال غوركي وقال له في رسـالة: «إني أؤمن أنـك الرجـل الحر الوحيد الذي عرفته. الوحيد الذي لا يعبد أي شيء.» أحب أيضاً أعمال تولستوي وعندما تـوفي تولستـوي قال في

رسالة لبونين «ليذهب كل شيء إلى الجحيم حتى الأدب» وقال عن تولستوي في رسالة بعث بها إلى منشيكوف عام ١٩٠٠ ما يلي: «أخشى من وفاة تولستوي لأنه إذا مات سيخلق في حياتي فراغاً كبيراً. لم أحب أي رجل قدر محبتي له. إني كافر ولكني من بين كافة المعتقدات أعتقد أن مبادئه هي الأقرب ولذلك أؤمن بها. عندما يوجد في عالم الأدب شخص مثل تولستوي يصبح من الممتع حقاً أن يكون الرجل أديباً. إن أعماله تبرر الآمال والتوقعات التي وضعت في الأدب. إن موقف تولستوي صلب وسلطته شاملة وطالما ظل حياً سيدفن دائماً الذوق السيء في الأدب والإبتذال الوقح ولن ينتشرا. . بدونه سيكون الأدب بدون راع». وقع تشيكوف تحت تأثير تولستوي. آمن بالطوبى الإجتماعية التي بشر بها تولستوي وآمن بأخلاقه الاجتماعية المستندة على مبدأ تولستوي حول عدم مكافحة الشر وضرورة الإشتراك في كافة الأعمال اليدوية الضرورية للحياة. وجد في مبادىء تولستوي وصفات تسمح بالكفاح ضد الإستبداد الإجتماعي وتدعو إلى التقشف والعمل اليدوي والعودة إلى الأرض. شكك تشيكوف باحتمال حدوث انقلاب اجتماعي «لن يحدث أي ثورة في روسيا». لكن هذا الإيمان لم يشبع لمدة طويلة نفس تشيكوف العنيفة والدقيقة والعلمية. كان تولستوي أرستقراطياً ثرياً أراد التنازل عن ثروته ليهبط إلى مستوى الفلاحين أما تشيكوف فكان حفيد خادم رجل إقطاعي أراد أن يتخلص من

إرثه من خلال التطلع نحو التقدم والثقافة. لذلك لم يدم طويلاً إيمانه بمبادىء تولستوي. كتب إلى صديقه سوفورين في عام ١٨٩١ «إني أرغب الآن في أن أملك سجاجيد ومدفئة وتماثيل برونزية. مع الأسف لن أكون أبداً تلميذاً مخلصاً لتولستوي».

إنتقد الفلسفة ولكنه أعجب بعبقرية الفيلسوف الذي يرى بوضوح نقائص الإنسان. منذ عام ١٨٩٢ ظهرت مؤلفات تشيكوف التي أكد فيها معارضته لمبادىء تولستوي. في ٢٧ مارس ١٨٩٤ كتب إلى سوفورين رسالة قال فيها: «لم تعد أفكار تولستوي تسيطر على عقلي. لقد تعلمت منذ صغري أن أعتقد بالتقدم. أحب الرجال الأذكياء والحساسية واللطف والكياسة والروح. أما بالنسبة لفلسفة تولستوي فقد أثرت في نفسي بعمق وظللت خاضعاً لها لمدة سبع عشرة سنة ولكن الآن ثار في داخلي شيء. الإدراك ومعنى العدالة يقولان إن في الكهرباء والبخار حب للقريب أكثر مما في الطهارة والإمتناع عن أكل اللحوم. الحرب شر دون شك وعدالة الرجال شر أيضاً ولكن لا يعني ذلك أن عليّ أن أرتدي الأسمال وأن أنام على المدفئة بجانب عامل وزوجته. لهذه الأسباب ولأسباب أخرى ابتعد عني تولستوي ولم يعد له مكان في نفسي وعقلي».

إن كون الكهرباء والبخار (القطارات) أعظم قيمة من



انطون تشيكوف مع تولستوي (١٨٩١)

الطهارة والتقشف فلأنهما يمثلان التقدم. آمن تشيكوف بالتقدم في حين ندد تولستوي به كما ندد بالموسيقى والمسرح والطب العزيز على قلب تشيكوف وهو الطبيب المتفاني لمهنته. في قصته «الغرفة رقم ٦» ندد تشيكوف بالخطر الإجتماعي الذي تمثله مبادىء تولستوي. «إن قوة وخلاص الشعب يكمنان في مثقفيه لأنهم يفكرون ويشعرون بإخلاص ويعرفون كيف يعملون. إن أم المصائب في روسيا هو الجهل الموجود بنسب متساوية لدى كل الأحزاب وكل الإتجاهات السياسية. والجهل يوّلد الظلم. لهذا السبب سافر تشيكوف إلى جزيرة سخالين حيث كان ينفى إليها كل من يعارض النظام السائد ويترك هناك إلى أن توافيه المنية. فإذا كان تشيكوف قد كافح في حياته فلأنه آمن بالرجال الصالحين وحارب ضد كل أشكال الإستبداد التي تمارس على ضحايا «عدالة الإنسان» قال في تقريره حول جزيرة ساخالين «لا أحب أن أرى مثقفاً منفياً هناك، يقف بجوار النافذة يتطلع بسكون وألم نحو سقف المنزل المجاور. بماذا يفكر في هذه اللحظة؟ لا أحب أن يقول لي باستهزاء «أنت سوف تعود إلى منزلك ولكن أنا فلن أعود أبداً». أسمع دعوته الصامتة «صبّ يا ربي عليّ لعناتك واجعلني أعيش في البؤس والأمراض والعذاب والتعذيب ولكن إسمح لي فقط أن أموت في منزلي». كافح تشيكوف من أجل تبديد الظلمات وإعطاء المثقفين طعم الحرية وكره «كل قوة وحشية» وإنقاذ

الشعب من كل الكذب والخداع في حياته اليومية. كتب في يومياته «إن تناول العشاء في فندق من الدرجة الممتازة احتفالاً بذكرى إلغاء نظام «العمل مقابل الطعام» الذي كان يتبعه الإقطاعيون والنبلاء بينما يحوم حول موائد الطعام الخدم يقدمون الطعام لأسيادهم وبينما يكون سائقو العربات ينتظرون في الصقيع خروج هؤلاء الأسياد يعني الكذب أمام الروح القدس». لم يكن الكذب وتدبيج الكلمات الفارغة والجمل المتعجرفة وملء العقول بالأوهام من طبيعة تشيكوف. قال في يومياته: «يقولون إن الحقيقة ستنتصر في نهاية الأمر وهذا ليس صحيح بالمرة: مقابل كل رجل ذكي يوجد ألف غبي ومقابل كل كلمة ذكية توجد ألف كلمة غبية». وقال في مكان آخر من اليوميات: «عندما يعطش الإنسان يبدو له أن بإمكانه شرب كل مياه النهر وهذا هو الإيمان ولكن ما أن يبدأ بالشرب حتى يتوقف عند الكأس الثالثة وهذا هو العلم».

كان تشيكوف عالماً نفسانياً أيضاً. يعرف أن الإنسان لا يعمل شيئاً حسناً إلا إذا كان هذا الشيء يستجيب «لحاجة في نفسه». بدت له النهضة الدينية خلال سنوات العقد الأول من القرن العشرين كنتاج لعدم التفكير والفراغ العقلي دون قاعدة صلبة ودون إحساس عميق بالوجود وبدون الأمل بمستقبل الإنسانية. قال تشيكوف في رسالة بعث بها إلى الكاتب

سيرج دياغيليف مؤرخة في ٣٠ ديسمبر ١٩٠٢ ما يلي: «تقول بأننا تحدثنا عن حركة دينية رصينة في روسيا. لقد تحدثنا عن حركة ليس في روسيا بل لدى المثقفين فقط. لن أقول لك أي شيء عن روسيا أما بالنسبة للمثقفين فهم لم يعملوا حتى الآن إلا بالتلاعب بالدين. يمكن القول حول الطبقة المثقفة في مجتمعنا أنها ابتعدت عن الدين وتستمر في الإبتعاد عنه. هل هذا حسن أم سيء فلا يهمني ذلك. أود فقط أن أقول إن الحركة الدينية هي حركة قائمة بذاتها وإن كل الثقافة المعاصرة هي حركة قائمة بذاتها أيضاً ولا يمكن تحديد أي ارتباط سببي بين الاثنتين. الثقافة الحالية ليست سوى بداية عمل طويل الأمد. باسم مستقبل عظيم لكي تعرف الإنسانية حقيقة الإله الحق؛ لكي لا تعد تحتاج إلى التكهن حوله والبحث عنه عند شخص مثل دوستويفسكي بل بالأحرى لكي تعرفه عن يقين تام كما تعرف إن اثنين زائد اثنين يساوون أربعة». رغم أن الدين، حسب اعتقاده، لا يؤثر على التقدم أو على الثقافة فإنه أحبه ولم يتنكر له حتى نهاية عمره. كان ينهي كل رسائله بجملة «الله يكون معك» أو «الله يحفظك». لم يغب أبداً عن باله في أن يصبح حاجاً ويزور الأماكن المقدسة أو أن يعيش داخل دير مبني في داخل غابة على ضفاف بحيرة. عبر تشيكوف عن مشاعره تجاه الطقوس الدينية والتراتيل الدينية في العديد من قصصه. فقصة «الليلة المقدسة» (١٨٨٦) تحدث عن زيارته لدير

مشهور وقال عن هذه الليلة: «إنها ليلة مخملية، أضاءت فيها النجوم العالم وهي مجمعة الواحدة بلصق الأخرى. أضواء السماء انعكست على صفحات الماء والأنجم تسبح في العمق المظلم للبحيرة».

أكمل تشيكوف أعماله الأدبية بالمحبة واللطف وقبول كل ما تجلبه الحياة وهي الحقائق التي يبشّر بها الإنجيل. هذا الكافر ترك صفحات يفتخر بها أعظم الشعراء المسيحيين. أن إحدى قصصه التي كتبها قبل مدة قصيرة من وفاته «في الوادي» جديرة بالملاحظة لأنها تؤكد تعلق تشيكوف بتعاليم الدين المسيحي. في هذه القصة كانت الفلاحة ليپا متخلفة عقلياً ولكنها كانت متواضعة ومحبة تقبل كل ما يأتيها من عند الله. عندما قتل ولدها البكر لم تتذمر ولم تشعر بأي حقد تجاه القاتل. عادت إلى منزلها وهي تحمل ولدها بين ذراعيها. «كانت تسير بخطى متثاقلة تنظر إلى السماء باحثة عن المكان الذي أصبحت فيه الآن روح ولدها. هل روحه تتبعها الآن وراء الجثة أم أنها تحوم حول النجوم في الأعالي لا تفكر بأمها؟».

كان تشيكوف فناناً من نوعية مميزة، رجلاً ذا ذكاء واضح وعادل. لم يكن تشيكوف مفكراً أو فيلسوفاً. لا يجب أن يبحث الناقد عن وحي ميتافيزيقي في أعماله ولا عن الأفكار الجديدة البراقة لأن أعمال تشيكوف تطفح بحكمة بسيطة،



انطون تشيكوف عام ١٩٠٠

مباشرة، حكمة رجل ثاقب الفكر، نافذ البصر، شريفاً وحنوناً للغاية يمارس هذه الحكمة بتواضع لا يتغيّر. يضفي كمال أسلوبه الفني على هذه المفاهيم البسيطة، العادية قوة مشعة من الجمال والإقناع. كتاباته تواسي وتشجع وتعطي الإنطباع بأن شيئاً ما قد تغير الآن في عالم الرجال.



صورة الرسام إسحق لفيتان صديق تشيكوف

تشيكوف الرجل

ليس في المظهر الخارجي لأنطون تشيكوف ما يثير أو يلفت النظر. يعطينا الأدب الروسي في القرن التاسع عشر مجموعة لوحات من الأشخاص المميزين: غربويدوف وحياته القصيرة ومغامراته المتواصلة؛ بوشكين العبقري الذي لا يهدأ له قرار؛ ليرمونتوف البطل الرومنسي الذي عاش حياة مأساوية؛ غوغول المؤلف الغامض الذي مزقته الميول المتناقضة وانتهى إلى الجنون الديني؛ دوستويفسكي الذي عاش كل المآسي عظيماً كنبي من أنبياء التوراة؟ تولستوي الفنان العظيم الذي كتب عن كل المواضيع الأدبية والفلسفية والحياتية وغيرهم وغيرهم. كان تشيكوف بجانب هؤلاء العباقرة شخصاً محدودب الظهر قليلاً، نحيف القوام ذا عينين نافذتين وشعر كستنائي رقيق ولحية صغيرة مدببة ونظرة رصينة ومركزة يرتدي ملابس أنيقة رغم قدمها. هكذا كان تشيكوف يبدو للناظرين إليه لكن حياته كانت مأساة: مأساة مرضه ومأساة عزلته ومأساة عبقريته.

في عام ١٨٩١ عرفت روسيا مجاعة قاسية بشكل خاص. هبت الأوساط الأدبية لمساعدة المحتاجين وتميز الأدباء بنشاطهم المحموم في هذا السبيل وبالأخص كورولنكو وتولستوي. حاول تشيكوف الإختلاط مع مجموعات المثقفين ومساعدة المحتاجين على الأقل بقلمه ولكن شعوره نحو هؤلاء المساكين لم يكن كشعور كورولنكو وتولستوي الذي كتب أحدهما «سنة من المجاعة» والآخر تقريراً مشهوراً حول مساعدة الجياع. هل كان تشيكوف يحب قريبه؟ يبدو أن الآخرين، المجهولين كانوا له بمثابة فئة جمالية. إذا كان الرجال ممشوقي القوام ويعيشون في محيط جميل كانوا يجدون عطفاً منه عليهم. بخلاف ذلك كان يصدر عليهم حكمه الآني واللاذع ويندد بهم. عندما سافر لأول مرة إلى خارج روسيا أثاره جمال وأناقة النساء فتحدث عنهم في رسائله إلى أصدقاءه كما كان يتحدث عن القصور والكنائس والصروح الفنية. قال عن نساء ڤيينا: «النساء جميلات وأنيقات» وعن نساء البندقية: «آه لو تعرف كم هي جميلة الأراغن الموجودة في الكنائس وكم هي جميلة التماثيل المعروضة فيها وكم هن جميلات الفتيات الإيطاليات وهن راكعات أمام التماثيل». كتب عن مدينة يالطا «إن أغلبية السكان هم من اليهود وممثلي المسرح أما النساء فطعمهن يشبه طعم البوظة المصنوعة من الڤانيلا» وكتب عن مدينة أركوتسك «الفتيات والنساء السيبريات يشبهن السمك

المجلد». في عام ١٨٩٦ كتب رسالة إلى صديقه سوفورين عندما كان على ظهر مركب يسير في نهر الفولغا «لم أجد من بين الركاب ولا امرأة واحدة فاتنة. لم يكن المسافرون على هذه الباخرة سوى أشخاصاً فظين، مستهلكين ومتعجرفين».

منذ أن بلغ عامه التاسع عشر وجد نفسه خادماً لعائلته وأن حياة أفراد عائلته مرتبطة به. مع ذلك لم يتخلى تشيكوف عن واجباته تجاه عائلته. كان ينفق كل المال الذي يحصل عليه لتأمين معيشة أشقاءه وشقيقته ووالديه. كان يكسب المال من مختلف النشاطات التي كان يؤديها. كان يفكر بكل شيء ويتحمل عن طيبة خاطر كافة المسؤوليات تجاه أفراد عائلته لأنه كان يؤمن أن ذلك من واجباته وأنه رغم برودته الظاهرة كان يحب أمه وشقيقته وأحبهما دائماً بنفس المحبة البعيدة المنفتحة، السرية والمخلصة والأكيدة لأن هذه المحبة كان كل ما يمكنه تقديمه لهما. رغم تذمره المتواصل من المرضى الذين كانوا يتدافعون نحوه لعلاجهم الذي عبر عنه في رسائل كثيرة إلى سوفورين كان تشيكوف يهتم بحماس تام وباندفاع مشهود بالفلاحين الفقراء الذين يأتون من مناطق بعيدة لكي يعالجهم هذا الطبيب الطيب القلب.

حول هذه البرودة تجاه الأصدقاء تحدث العديد من معاصريه بوضوح. قال سيرجينكو زميله في الجامعة «لم يملك تشيكوف أبداً هذه العناصر الدينامية التي نسميها

أحاسيس. لم يتميز تشيكوف لا في طفولته ولا في صباه ولا في سنوات رجولته بالعواطف الحارة تجاه عائلته أو تجاه أصدقاءه. إنه وحيد منعزل له الكثير من الأصدقاء ولكنه ليس صديقاً لأحد». في عام ١٩٠٠ إنتخب تشيكوف عضواً في أكاديمية الفنون قسم الآداب وفي عام ١٩٠٢ قدم استقالته منها لصداقته لمكسيم غوركي الذي رفضت الأكاديمية قبوله كعضو فيها. قال صديقه الحميم إيڤان بونين عن تشيكوف، خلال السنوات الأخيرة من حياته «إن ما يجري في عمق نفسه لا يعرفه أحد ولا حتى أقرب الأصدقاء إليه. لم تتركه لحظة سيطرته على نفسه حتى خلال الأحاديث الودية التي تجري عادةً بين الأصدقاء». وقال ألكسندر كوبرين في مذكراته حول تشيكوف وغوركي «يبدو أنه لم يفتح قلبه أمام أي شخص. كان مهذباً مع الجميع ولكنه غير مبال تجاه الأصدقاء» وقال عنه أيضاً الكاهن شتوكين المعجبُ الكبيرَ بأعمال تشيكوف: «إن قصص تشيكوف طافحة بالمحبة والعذوبة تجاه الرجال ولكن نظرة الرجل الذي كان يتحدث إليّ كانت باردة خالية من أي عاطفة وكانت كلماته جافة ومقتضبة. بدا لي أن هذا الرجل لا يمكن أن يكون الشخص الذي كتب هذه القصص الإنسانية».

وأخيراً اتهمته الإمرأتان اللتان أحبهما بالبرودة العاطفية تجاههما. الأولى كانت ليديا ميزينوڤا التي مثلت مسرحية

«النورس» عاتبته لأنه أظهر لها عدم مبالاة والثانية كانت ليديا افيلوفا التي قطعت علاقتها به لأنه كان بارداً في عواطفه لا يسأل عنها حتى ولو لم يقابلها لعدة أيام وعندما مرضت لم يحاول السؤال عن صحتها أو يزورها في منزلها للإطمئنان عليها. .

ولكن مقابل هذا العداء تجاه الرجال والبرودة العاطفية تجاه الأصدقاء والمعجبين لم يكن أي رجل إبناً أفضل أو شقيقاً أحسن أو صديقاً أخلص وأكرم من هذا الرجل البارد العواطف. الحقيقة هو أنه لم يحب آنياً الرجال ولم ير فيهم سوى فئة جمالية. كان يبدي إعجابه بالأشخاص المميزين والمثيرين للإعجاب مثل تولستوي وسوفورين وغوركي وكوبرين أو فلاح فقير الذي يحب فيه إخلاصه وطهارة قلبه. قال على لسان بطل روايته «العم فانيا» ما يلي: «لا أحب الرجال ولم أحبهم في السابق والفلاحون يتشابهون. إنهم متخلفون يعيشون في القذارة وأجد من الصعب عليّ أن أتفاهم مع المثقفين فهم متعبون. كل الأصدقاء الجيدين فقراء في الفكر والمشاعر ولا يرون إلى أبعد من طرف أنوفهم. إنهم ببساطة أغبياء حاقدون». مع ذلك ملكت الرحمة تجاه الضعفاء والمساكين والمظلومين قلبه وعقله ولكن الرحمة لم تجلب له الرضى ولا السعادة. بالمقابل يملأ الحب فراغ الفكر والذين يحبون لا يكونوا أبداً وحيدين

وهنا دون شك تكمن إحدى أعظم المعجزات الإنسانية! لم يخط القدر لتشيكوف أن يعيش هذه المعجزة ولذلك ظل يشعر بالعزلة والوحدة. كان حوله دائماً عددٌ كبير من المعجبين والمعجبات ولكنه طلب أن يحفر على قلبه «بالنسبة للرجل الوحيد فإن العالم كله يبدو صحراء قاحلة»..

إذا كان معاصروه أعجبوا في السابق بروعة أسلوبه وببساطته وبروحه وبموهبته فقد فوجئوا بعد عام ١٨٩١ وبعد نشر تقريره «جزيرة سخالين» بهذا الكرم الشامل وبالإهتمام الشديد الذي خصصه إلى كل المحيطين به الذين كانوا يطلبون مساعدته أو تأييده. طلب وهو في مدينة نيس من شقيقته أن توزع بعض النقود والهدايا على الفقراء بمناسبة عيد الميلاد. لم ينسى هذا الرجل المريض بالسل الرئوي الذي يبصق الدم المضطر للإقامة في يالطا بعيداً عن عالمه الذي أحب أن يُرسلَ بصورةٍ منتظمة إلى بعض أصدقاءه نسخاً من صحيفة باور سلافي مجاناً ويقوم هو بنفسه بتغليفها وإرسالها بالبريد. لم يمنع كفرٌ تشيكوف من تقديم معونات مالية كبيرة إلى الأعمال والمشاريع الكنسية وحتى إلى مشاريع إقامة المساجد للمسلمين في يالطا.

في ٢١ يناير ١٨٩٥ كتب إلى سوفورين «النساء يأخذن شباب الرجال ولكنهنّ لن يأخذن شبابي». ولكن في عام ١٨٩٨ قابل أولغا كنيبر المرأة الوحيدة التي نجحت في

إقامة علاقة عميقة معه وترك تشيكوف نفسه تنجرف شيئاً فشيئاً في هذه المغامرة الغرامية التي انتهت بزواجه من أولغا في ٢٥ مايو (أيار) ١٩٠١. ولكن زوجة تشيكوف لم تعش معه الحياة الزوجية التي كان يتطلع إليها. كانت ممثلة مسرحية مضطرة لأن تبقى في موسكو لتقديم العروض المسرحية لمسرحيات تشيكوف. كانت ذكية وموهوبة وتتمتع بصحة ممتازة وحيوية طافحة في حين كان تشيكوف مضطراً للبقاء في يالطا نظراً لمرضه يعيش وحيداً مع والدته وخادمته العجوز. كتب رسالة مؤثرة إلى زوجته قال فيها: «إنني أشعر بالملل القاتل. لا أتناول سوى الحساء وأمضي أوقاتي مسجوناً داخل المنزل. لقد بدأ المال يشح لدي وبدأ شعر لحيتي يبيض. إلى اللقاء يا أوليا يا تمساح روحي». وكتب إليها رسالة أخرى قال فيها: «لقد نقلت مقعدك إلى غرفتي فظلت غرفتك ساكنة وفارغة. صورة والدتك لا زالت فوق الطاولة. أحبك يا حبيبتي. أحبك كثيراً. ليحرسك الله. إكتبي لي كل يوم وإلا سأضطر لمعاملتك بالمثل. إني أحس بالفراغ العميق وأنت بعيدة عني. إننا نرتكب خطيئة كبيرة لأننا لا نعيش سوية. آه كم أحسدك يا حبيبتي. أحسد نشاطك وحيويتك وصحتك وسعادتك وأريد ألا يفسد ذلك أي مرض كالمرض الذي ينهكني الذي يمنعني من العيش سعيداً».

أراد من كل قلبه أن يرزق بطفل. كتب إليها رسالة

في ٢٠ سبتمبر ١٩٠٢ حول هذا الموضوع: «هل سمح لك الطبيب بالإنجاب. آه يا عزيزتي يا حلوتي. الوقت يمر بسرعة. عندما يصبح طفلنا في سنته الثانية سيكون شعر رأسي عندئذٍ أبيضاً بالكامل وسأكون بدون أسنان وستكونين أنت كالعمة شارلوت. إنك مميزة ولطيفة ومخلصة وذكية وامرأة نادرة. ليس فيك أي عيب على الأقل من وجهة نظري ولكنك عندما تغضبين أجد من الأفضل الإبتعاد عن طريقك. هناك عيب مشترك بيننا: لقد تزوجنا في وقت متأخر جداً. يا صديقتي ويا يمامتي ويا جميلتي لا تقلقي أرجوك. ليست الأمور سيئة إلى الحد الذي تعتقدين أنها وصلت إليه. قومي بمهنتك على أكمل وجه، تعلمي وانظري وراقبي. إنك لا زلت ممثلةً شابةً فلا تدعي الهموم والقلق يقضون عليك».

في عام ١٩٠٣ أنهى تشيكوف كتابة مسرحيته الشهيرة «حقل الكرز». سافر إلى موسكو لحضور العرض الأول للمسرحية في ١٧ يناير ١٩٠٤. عرفت هذه المسرحية نجاحاً كبيراً ولكن المؤلف كان مريضاً للغاية وأمره الأطباء بالعودة فوراً إلى يالطا لأن شتاء موسكو سيقضي عليه حتماً. وفي شهر فبراير عاد إلى يالطا. كتب تشيكوف في يومياته (٢٠ فبراير ١٩٠٤) «لم يعد لدي زوجة فهي في موسكو وأنا في يالطا أعيش كناسك. لقد أمضيت وقتاً جميلاً في موسكو مع زوجتي بحيث شعرت عندئذٍ بأني كجندي عائد من

الحرب. إني أسير في أرجاء المنزل متثاقل الخطى وأشعر بأني أكاد أختنق. أعيش بدون أفكار وبدون رغبات أتذكر فقط نجاحات زوجتي ونزهاتي معها».

لم يبقى أمام انطون تشيكوف سوى شهرين من الحياة بجانب زوجته التي أحبها من كل قلبه، المرأة الوحيدة التي ألهمته كلمات الصفحات النادرة التي خصصها للتحدث عن الحب.

الخاتمة

كانت روسيا التي وصفها تشيكوف في قصصه العديدة أكثر واقعية وأكثر تعدداً في الأشكال من روسيا التي وصفها غوغول أو تورغينييف أو تولستوي. سمحت أعماله بإعادة بناء صورة الحياة الروسية خلال الأعوام ١٨٨٠ - ١٩٠٠. لم يغيّر هذه الصورة أي ميل رومنسي أو ديني أو ليبرالي أو شعبي. كان تشيكوف فناناً مستقلاً تماماً في أفكاره. رفض بقوة النير الأيديولوجي الذي أثر على أعمال الأدباء المعاصرين له. كان مراقباً نافذ البصر وثابت الذهن. يتغلغل في أعماق النفس السرية للرجال والأشياء. آمن بالمثالية رغم تشاؤمه واعتقد بكمال الإنسان وبقدوم قريب لحياة أجمل وأسعد.

لم يتبع تشيكوف الأسلوب الأدبي لتورغينيف أو دوستويفسكي أو تولستوي بل على العكس وضع أسلوباً جديداً خاصاً به فأجرى بذلك ثورة في الأدب الروسي. عمل بصمت لإصلاح النثر. لغته بسيطة ودقيقة ومتحررة من كل تفصيل فائض يتفهمها الجميع ولكن تشيكوف لم يحقق كل

ذلك بسهولة ولا اعتماداً على الحظ. كـان يؤلف ويبني الجمل وينسق الترابط بينها. يعبر ضمنياً قصر قصصه عن الطريقة الإنطباعية لوصفه فهو يعبر فقط عن الإنطباع الذي تكون لديه مطهراً من كل عنصر آخر، عارياً من فخامة الأسلوب وحب التظاهر.

هذا الإحساس الذي يشعر به المشاهد بعد سماع كل جملة وهذه المشاركة من جانب المؤلف في العمل خلقا الجو الذي لا يضاهي للقطع المسرحية لتشيكوف، هذه المسرحيات الشعرية التي تتنكر حتى لقواعد الفن المسرحي وتبقى ظاهرة فريدة في تاريخ المسرح.

كان تشيكوف مادياً ومَلحداً يسكنه قلق ديني وتعذبه حقيقة يشعر بها حدسياً ولكنه لم يتوصل إلى تحديد صورتها. قال في يومياته: «نحن نعمل من أجل الآخرين دون أن نعرف أي راحة وعندما تحين ساعتنا نموت باستسلام وهناك خلف القبر نقول إننا تعذبنا وإننا بكينا وإن حياتنا كانت مرة. سيرحم بنا الله وسوف نرى حياة صافية جميلة لذيذة فتسعد نفوسنا ونلقي على عذابات اليوم نظرة مليئة بالإنفعال وبالعطف الباسم. عندئذ سنرتاح».

حول قصته «الغرفة رقم ٦» التي مثلت على المسرح الفني في موسكو كتب لصديقه سوفورين الذي بعث إليه بقصاصات الصحف التي احتوت ما قاله النقاد المسرحيون

حولها. جاء في هذه الرسالة: «ليس من الصعب أن أفهم ما أردت أن تقوله لي. أنت سكير تعس وأنا قدمت لك شراب الليمون المحلى. أعجبك هذا الشراب ولكنك لاحظت أنه خالٍ من الكحول وبالفعل ينقص في أعمالنا هذا الكحول الذي يُسْكر ويُخْضِع وأسألك بأن تقول بكل صراحة مَنْ مِنَ الكتّاب بعمري أعطى العالم ولو قطرة من الكحول؟ أليس تورولنكو ونادسون وكل كتّاب القصص المعاصرين هم من شراب الليمون؟ هل أدارت رأسك أعمال الرسامين المعاصرين؟ تقول عنهم إنهم موهوبون وتعجبك أعمالهم ولكنك بعد لحظة تتذكر أنك لم تشرب سيكارة! إن العلم والفن يمران حالياً في عصر عظيم ولكن بالنسبة لنا نرى أنه عصر باهت، سوداوي، كئيب ونحن سوداويون وتعسون. لا نعرف كيف ننجب سوى أعمال ركيكة وسبب ذلك لا يعود لا إلى نقص الذكاء ولا نقص الموهبة لدينا بل في مرض يعتبره الفنان أسوأ من السفلس أو العجز الجنسي. ينقصنا «شيء ما» وهذا صحيح وذلك يعني أنه عندما ترفع الثوب عن ربة الفن سترى الفراغ».

«تذكر إن الكتاب الذين نطلق عليهم لقب الخلود ويسكروننا بكلماتهم يملكون ميزة مشتركة مهمة للغاية: إنهم يتوجهون إلى مكان معين ويدعونا للحاق بهم إلى هذا المكان ولكنك تعرف بأن لديهم هدف محدد. تكون هذه الأهداف عند البعض فورية: إلغاء نظام العبودية وتحرير الوطن

والسياسة والجمال وتكون هـذه الأهداف عنـد البعض الآخر أهـدافاً بعيـدة: الله، الحياة الأبـدية، سعـادة البشريـة وغيـر ذلك. أفضلهم واقعيون ويصفون الحياة كما هي عليه ولكن نظراً لأن كل سطر يكتبونـه مشبّع بضميـر هدفهم فتشعـر، بـالإضافـة إلى الحياة التي لا زالت كمـا هي، بالحيـاة كما يجب أن تكون وهذا هو الذي يستهويك. ولكن نحن! نرسم الحياة كما هي ونتوقف حتى ولو تم ضربنا بالسياط. لا توجد لدينا أي أهـداف لا قريبـة ولا بعيدة ونفسنـا فارغـة، فارغـة تماماً. لا نتبنى أي معتقد سياسي ولا نؤمن بالثورة ولا بوجود الله ولا نخشى الأشبـاح وشخصيـاً لا أخـاف لا المـوت ولا فقدان البصر. فالذي لا يـريد شيئـاً، لا يأمـل في شيء ولا يخاف من شيء لا يمكن أن يكون فناناً. تجد أنت وغريغور وفيتش بـأني ذكي. نعم إني ذكي من حيث لا أخفـي على نفسي المرض الذي أعاني منه. لن أقذف بنفسي من مكان مـرتفع ولكني أيضـاً لن أعلل نفسي بأمـل حـدوث مستقبـل أفضل».

وجـاء في قصته «اريـادنا» التي نشـرت عام ١٨٩٥ على لسـان بطل الـرواية مـا يلي: «نشعر بـأننا غيـر راضين لأننـا مثـاليون. نـريد أن يكـون الذين ينجبـوننـا متفـوقين علينـا، متفوقين في كل شيء في هـذه الحياة. طـالما بقينـا صغار السن نتيه في الخيال والتصورات ونحس بأننا عشاق. الحب والسعادة صنوان لدينا. يكره الشاب الزواج في روسيا إذا كان

زواجاً بدون حب لأن الشبق مضحك ويوحي بالقرف ولذلك عـرفت النجـاح القصص التي تصف فيهـا النسـاء بـأنهن جميلات وشاعـريات ومثقفـات. ولكن هنا تكمن التعـاسة. حالما نتزوج ونرتبط بالمرأة التي أحبها قلبنا نبدأ بالشعور بعد انقضاء سنتين أو ثلاث سنـوات بأننـا خدعنـا. نرتبط بنسـاء أخريات من جديد ومن جديد نواجه نفس خيبة الأمل فنصل بعـد حين إلى اقتنـاع بـأن النسـاء مـزيفـات، حقيـرات، متعجرفات، ظالمات، متأخرات، قاسيات. بـاختصار نقتنـع ليس فقط بأنهن لا يتفوقن علينـا، نحن الرجـال، بل بـأنهن دون أدنى شك في مرتبة أدنى منا بكثير».

قبل ست سنوات من وفاته شرح تشيكوف بوضوح ضرورة نسيان الشخص لنفسه شـرط ألا يفقد أبـداً رؤيته لمـا يجري في الكواليس. قال في قصته «كشمش للأسقمري»: كان أمامي رجل سعيد تجسد حلمه بطريقة واضحـة؛ رجل وصـل إلى الهـدف الذي رسمـه لنفسه؛ رجـل حصل على مـا يرغب؛ رجـل راضٍ عن مصيره وعن نفســه. كنت عندمـا أفكر في السابق حول السعادة الإنسانية كان شيء حزين يضاف دائماً إلى أفكاري دون أن أعرف سبب ذلك. أما الآن ولدى رؤيتي هذا الرجل السعيد يغمـرني شعور مؤلم يقـرب من القنوط. أخذت أفكر بالعدد الكبيـر من الناس السعـداء الراضين في هـذا العالم. أنـظروا إلى الحياة: وقـاحة وكسـل من جانب

الأقوياء، جهل ووحشية من جانب الضعفاء. لا شيء سوى تعاسة لا تحتمل، تعاسة خانقة، لا شيء سوى الإنحطاط والسكر والخداع والكذب الأبدي... وبجانب ذلك، في كافة هذه المساكن، في الشوارع، يخيم السكون والهدوء. من بين الخمسين ألفاً الذين يشكلون سكان هذه المدينة لم أجد شخصاً واحداً يرفع صوته مستنكراً ويدعو للثورة. نشاعد كل هؤلاء الذين يركضون لابتياع حاجياتهم من السوق؛ الذين يأكلون في النهار وينامون في الليل؛ الذين يتحدثون عن سخافاتهم ويتزوجون ويشيخون وينقلون موتاهم بهدوء واستسلام ولكن نحن لا نرى ولا نسمع صوت المتألمين كما لو أن كل الأمور المخيفة المرعبة في الحياة تدور في مكان ما داخل الكواليس. كل شيء هادىء ومسالم ولا يتذمر سوى النورس الساكن: كل هؤلاء الرجال الذين فقدوا عقولهم، كل هذه البراميل من الڤودكا التي تكرع، كل هؤلاء الأطفال الذين يموتون من الجوع. من الظاهر أن نظام هذه الأشياء ضروري؛ من الظاهر أن الرجل السعيد لا يشعر بالسعادة إلا لأن المساكين يحملون أثقالهم بصمت وأنه بدون هذا الصمت تصبح السعادة غير ممكنة. إنه عملية تنويم مغنطيسي شاملة وعامة. يجب أن يقف خلف باب كل رجل راضٍ وسعيد رجل يحمل مطرقة صغيرة لتذكير هذا السعيد بأن التعساء موجودون وأنه مهما كانت سعادته عظيمة فإن الحياة عاجلاً أم آجلاً ستكشف له عن أنيابها وسوف

تنقض عليه التعاسة والمرض والفقر والأحزان. لكن الرجل الذي يحمل المطرقة غير موجود الآن ولذلك يعيش الرجل السعيد ويستمر كل شيء كما كان عليه في الماضي. أرجوك يا قارئي ألا تنام. طالما بقيت شاباً وقوياً ويقظاً لا تتوقف عن عمل الخير وافعله بصورة جيدة وفعّالة».

انتهى

المراجع

نشرت الدولة الروسية في ٢٠ مجلداً الأعمال الكاملة ورسائل انطون تشيكوف خلال الأعوام ١٩٤٤ - ١٩٥١. تعددت المصادر باللغة الروسية وترجمت إلى لغات حية عديدة نذكر من بينها «تشيكوف حسب ذكريات معاصريه» (موسكو، ١٩٥٤) وتولستوي وتشيكوف (موسكو، ١٩٦٣). أما مراجع الكتب الأخرى فهي :

LA PSYCHOLOGIE DES ROMANCIERS RUSSES DU 19eme SIECLE, PARIS, 1905.

ANTOINE TCHEKHOV, LE MEDECIN ET L'ECRIVAIN, MONTPELIER, 1927.

LA VIE DE TCHEKHOV, ALBIN MICHEL, 1953.

L'ART DE TCHEKHOV, MONDIALES, PARIS, 1960

HISTOIRE DE TCHEKHOV, SA VIE, SON OEUVRE, ED.FRANÇAIS REUNIS, 1954.

A LA RENCONTRE DE TCHEKHOV, ED. JOHN DIDIER, PARIS, 1962.

ANTOINE TCHEKHOV, ED. UNIVERSITAIRES, 1962.

TCHEKHOV, HACHETTE, 1963.

TCHEKHOV, SEGHERS, 1966.

TCHEKHOV, UNE BIOGRAPHIE, LAFFONT, 1968.

TCHEKHOV, LE SEUIL, 1955.

المحتويات





6

هذه السلسلة:

(1) لافونتين	LAFONTAINE	(9) ديكنز	DICKENS
(2) پاسكال	PASCAL	(10) كيير غارد	KIERKEGAARD
(3) ماوتسي تونغ	MAO TSO TONG	(11) ماكياڤيلي	MACHIAVELLI
(4) غوته	GOETHE	(12) ڤيرجيل	VIRGILE
(5) شوبنهوير	SCHOPENHAUER	(13) شكسبير	SHAKESPEARE
(6) تشيكوف	TCHEKOV	(14) ديكارت	DESCARTE
(7) غوركي	GORKI	(15) هومير	HOMER
(8) همنغواي	HEMINGWAY	(16) دوستويفسكي	DOSTOIEVSKI

هام جداً،،

أدباء منتحرون «دراسة نفسية»

كتاب واحد، من إعداد مكرم شاكر اسكندر

يعالج الكتاب دراسة هذا السلوك التدميري الذي يدمر فيه الفرد ذاته والذي أقدم عليه أديبان من أكبر أدباء القرن العشرين وهما: الأديبة الانجليزية فيرجينيا ولف، والأديب الأمريكي إرنست هيمنجواي. وقد جاءت الدراسة من خلال التحليل والتفسير بعض الإنتاج الابداعي القصصي لهما.

تباع هذه الكتب لدى:

- بيروت: مكتبة سوفنير - دار الراتب ص.ب ١٩/٥٢٢٩ تلفون ٣١٣٩٢٣ بيروت/لبنان.
- القاهرة: هلا بوك شوب - تلفون ٣٤٤٩١٣٩ المهندسين - الصحافيين.
- عمان: مكتبة الراتب العلمية - تلفون ٦١١٥٤٨ قرب مجدلاوي - الأردن
- الكويت: وكالة المطبوعات - تلفون ٢٤٣٢٢٩٦.
- الشارقة: مكتبة دار الحياة - مكتبة الآداب • دبي: مكتبة دار المناهل.